عبد الغني بن الطالب

# مرافئ الزمن

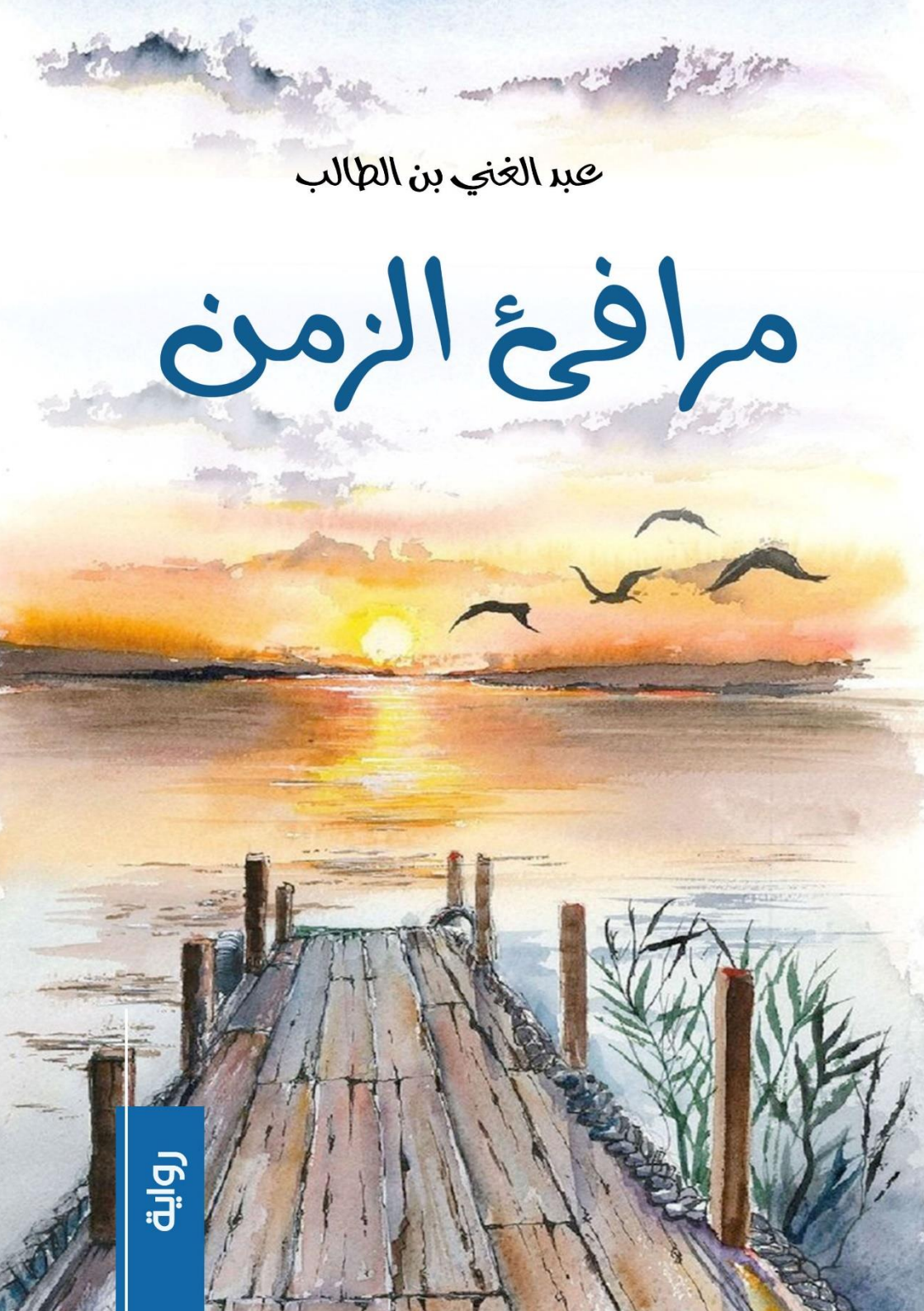

رواية

عبدالغني بن الطالب

# مرافئ الزمن

رواية

الكتاب: مرافئ الزمن

تأليف: عبدالغني بن الطالب

الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإيداع القانوني: 2022MO4777

ردمك: 978-9920-40-762-5

مطبعة وراقة بلال – فاس / المغرب

الهاتف / الفاكس: 05.35.61.86.03

العنوان: رقم 204 شارع المدينة المنورة حي الأمل / النرجس – فاس

بسم الله الرحمن الرحيم

## ملحوظة:

أحداث هذا العمل الفني كلها من نسج الخيال. وقد تتقاطع مع بعض الأحداث والوقائع، دون قصد لأشخاص أو مسميات إلا ما جاء عفوا حسب ما تتطلبه تقنيات السرد. وتلك طبيعة العمل الفني في تقاطعه وتداخله مع عوالم وأسماء وأمكنة، يتم توظيفها لنقل الرسالة عبر كل الوسائط المتاحة. فما جاء مشابها أو مطابقا فهو أمر غير مقصود ولا يستهدف أحدا أو جهة بقدر ما هو تقنيات فنية محضة ترصد الظاهرة وتعالج الأزمة.

# نقطة نظام

جبال عالية مكسوة بأشجار خضراء تحيط بالمكان، ونهر يقسم المنطقة نصفين، وعلى ضفافه بعض البساتين وأراض خصبة ينتشر فيها شجر الكرم والزيتون... ووسط هذا المشهد الجميل انتصبت ثلاث مؤسسات تعليمية ابتدائية وإعدادية وثانوية. وفي مدخل البلدة سوق أسبوعي يقطع الطريق على الداخل، ولا يجد إلا مقهى شعبيا أدمن الموظفون ريادته فهو المتنفس الوحيد أمامهم لقتل الفراغ الشامل المحيط بهم وهو النادي العام لتداول المشاكل، وترتيب العلاقات، وأحيانا تدبير المؤامرات وتبادل المعلومات حول الاصطفاف النقابي والحزبي والمصلحي.

في زاوية من المقهى جلس القادم الجديد ينظر إلى المكان بإعجاب وتوجس.. فللبلدة جمال طبيعي ترتاح إليه النفس ولكنها غارقة في الفقر والتهميش رغم أن الكثير من أهلها لهم نفوذ ومواقع قوية داخليا وخارجيا.. جاءه النادل فطلب كأس قهوة، واستغل المناسبة ليستفسره عن وجود أحد من أساتذة الثانوية، فما كان منه إلا أن أشار إلى مجموعة في الركن المقابل لمجلسه في المقهى. وكان من الصدف العجيبة أن تعرف بسهولة على بعض الوجوه.. منهم الحارس العام والمدير اللذان هبا للسلام عليه، وكان الحارس العام أسرع بالمجاملة وتقديم الموظف الجديد لبقية المجموعة، ففسح له مكانا للجلوس وسط

نظرات من الترحيب والاستغراب بل والاشمئزاز.. مما جعله يتنكر لمعرفة الكثير منهم، فهو يعرف مسبقا أن لكل منهم مواقف منه لا يسره استعادتها والتذكير بها.. اعتذر بسبب السنوات الطوال التي فصلته عن أكثرهم، وخاصة مدير المؤسسة، فليس بإمكانه استذكار سنوات الطفولة التي مرت عليها أكثر من عشرين سنة حين كان يساكنه نفس الحي في المدينة القديمة، ويعرف لقبه الطفولي القبيح، وفقر الأسرة، ومهنة الأب، وأشياء كثيرة لا يرغب زيكا أن يعرفها عنه أحد. قال المدير بنبرة قوية:

- "أنا أعرفك، وملامح وجهك رغم طول السنين ليست غريبة عني".

كانت هذه النبرة كافية لفهم ما هو قادم، خاصة وأن الحارس العام نفسه انسحب، حتى لا يستعيد خالد بعض ذكرياته معه، أو يذكره بحدث قديم يمكن أن يربك علاقاته ويفسد الصورة التي أجهد نفسه لرسمها في البلدة عن نفسه وماضيه.

جذبه المدير من كم قميصه الصيفي وقال:

_ "أهلا بك أستاذ. يجب أن تعلم أن العمل في المؤسسة لا تحكمه العلاقات الشخصية.. فلابد أن تثبت قدرتك وتفوقك، وشيء مهم هو الاحترام فالناس هنا لا يرحمون من يخطئ في حقهم".

كلام واضح وخطة طريق لا يعلم إلا الله ما بعدها وإلى أين تنتهي، فالأجواء مكهربة وصراعات الطفولة والشباب تجمعت كلها دفعة واحدة، وساحة المعركة هذه المرة تختلف تماما عن دروب المدينة وساحات الجامعة. إنها استهداف مباشر في لقمة العيش وضربة تقسم الظهر.. إلغاء مباشر من الحياة وقتل في واضحة النهار مع غياب تام للشهود وآثار الجريمة.

دارت في نفسه أفكار كثيرة حول الماضي والحاضر والتوقعات. وبدأ يحدث نفسه، ويستحضر شريط الذكريات حين خلا بعيدا عن المجموعة:

- في الطفولة كنت يا خالد منزويا على نفسك قهرك اليتم والفقر لا تشارك الأطفال لعبهم ولا تهتم بما يدور حولك. وكان زيكا القصير القامة والممتلئ كالكيس.. يحاول إخفاء لهجته الجبلية بلكنة فاسية مصطنعة تثير الاستهزاء، وكان مدارا لسخرية أبناء الحي وتحرشات المراهقين. وضع لا يعجب زيكا ويؤلمه كما يؤلمه وضعه الاجتماعي، لأنه تعايش في الحزب والمدرسة مع أبناء طبقة اجتماعية تربت على الوهم والتفاخر بالأنساب والمراكز الاجتماعية، فعاشوا انفصاما بين الكائن والمتخيل وهو ما كان يظهر واضحا في كلام زيكا عن ماضيه المجيد

ومنزلهم الكبير الذي أتعب أخته وأمه ترتيبا وتنظيفا، مما اضطر الوالد لبيعه وشراء شقة صغيرة حفاظا على صحة الأم وابنتها.. تفسير منطقي لوضع اجتماعي مهزوز يختفي خلف أوهام الأبهة والاستعلاء.

أحس خالد أن الساحة الآن مختلفة، وأنه وحده في المعركة سيواجه زيكا والعياشي، وطلبة اليسار المتطرف الذين جمعته بهم سابقا ساحات الجامعة. يواجهونه الآن بنظراتهم الحاقدة مصطفين إلى جنب المدير والحارس العام.. لا سبيل ولا مهرب من المواجهة. كان في الجامعة يناضل من أجل الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان.. ضد دكتاتورية اليسار المتطرف والنظام القمعي، معتزا بانتمائه وأصالته، وهو ما جعله هدفا لكل الاتجاهات وما كان يزيدهم حقدا هو نبوغه المعرفي ونجاحه المتميز.

ذكريات تداخلت فيها أجواء الجامعة بثقافتها وعنفها وصراعاتها وهمومها، مع أجواء الطفولة بحرمانها ومشاكساتها وبراءتها..

أجواء لم يكن خالد ليستحضرها ويسترجع مشاحناتها وعذاباتها وصداماتها لو قذفت به أقداره بعيدا عن زيكا والعياشي ورفقة الجامعة.. فانهار سيل الذكرى لينكأ جراحا ويستعيد آلاما وأحزانا

شكلت جزءا من شخصيته ثقافيا واجتماعيا ونفسيا.. فانهارت الذكريات..

# التكوين

-1-

## الجو الطلابي

أصوات مرسيل خليفة، وأميمة الخليل، ومجموعة العاشقين تصدح في الحرم الجامعي عبر أبواق مسجلات الباعة المناضلين، فتختلط صباحا برائحة البن ومساء برائحة المطعم الجامعي ليصبح الخليط جزءا من الذاكرة الجمعية للنضال وموجها أيدولوجيا يمد المناضلين بالصلابة والصمود والتواصل مع القضايا القومية والإنسانية: "الشعب العربي وين.. وين الملايين؟ وين؟".. "منتصب القامة أمشي".. "**اشهد يا عالم علينا وعَ بيروت اشهد بالحرب الشعبية**".. ومع أصوات النضال ينطلق صوت ملائكي حزين يصور المشهد العربي واللبناني في بكائيات فيروز "أغترف الحزن" فتتضخم المأساة وتحلو التضحية، وتكتمل الدائرة بالنقاشات المفتوحة حول الموقف من الأنظمة الرجعية، والمخططات الإمبريالية التي تستهدف القوى التقدمية وكيفية مواجهتها، فتختلف الرؤى وتتعدد المواقف، ويتبادل الرفاق الاتهامات، ويتم طرد العناصر المشبوهة والإصلاحية، مع التحذير الشديد من برامجها الخطيرة على النضال..

كان النشاط الطلابي في بداية انحداره فتمسك الرفاق القدامى بمشروعية النضال والصراع من أجل الوجود والبقاء، وكان من الصعب إيجاد خطاب معتدل أو منفتح خارج السياق اليساري الذي كان منقسما إلى فصائل متناحرة لا يحسم بينها الخلاف -في كثير من الأحيان- إلا بالهراوات والسيوف، ولا مجال للحوار والنقاش الهادئ فتلك سمة ليبرالية تهدف إلى قتل النضال وخدمة القوى الرجعية.. وقد ساعد على تثبيت هذا التفكير وجود نظام قمعي شمولي، وتصاعد الخط النضالي القومي واليساري ضد قوى ما وسم بالرجعية العربية التي تحاول تصفية القضية الفلسطينية والقضاء على المقاومة السياسية والمسلحة. فقد تم إخراج المقاومة الفلسطينية من بيروت ونالت التصفيات الكثير من الرافضين لنهج التفاوض والاستسلام.. وظهر خط إسلامي قوي أربك الحسابات، فكانت حماس تكتب بالدم ملامح خط جديد مسنودة بالمقاومة اللبنانية، ودعم التيارات الإسلامية وأحرار العالم.. فنبت تفكير جديد يتجاوز النضال اليساري التقليدي، وشهدت الساحة الجامعية صراعات بين الطلبة في محاولات إثبات الوجود والحرص على نفي الآخر، مما فوت على الجميع فرصة إيجاد تنظيم طلابي قوي يشارك ويتفاعل، وسهل على النظام

إضعاف الطرفين بإدخالهما في معارك لا تنتهي حتى بانتهاء الفترة الجامعية للطالب.

كثيرا ما كان خالد يلج الحرم الجامعي مدفوعا بهمومه الذاتية والمعرفية ليجد نفسه في نقاشات حول الوضع المحلي والقومي، فتقع المزايدات وتتداعى الفصائل لحماية الجامعة من الرجعية والظلامية.. وتثور العواطف ويقع الصدام.. كان أول صدام شهده خالد قبل بدء حصة النحو حين أراد إلقاء كلمة عن الوضع العام للطلبة، والفوضى التي تقع أثناء الخروج وركوب الحافلات، في محاولة لتنظيم العملية، وتجنبا لمشاكل الازدحام، ولكن مناضلي اليسار اعتبروها محاولة لسحب البساط من الفصائل اليسارية التي لها وحدها الحق في التأطير والتنظيم.. فهوجم بالشعارات وبمحاولة سحب المبادرة. فاحتج خالد على هذا السلوك الرجعي الظلامي من فئة كان الأولى أن تقود التنوير.. وما كاد يكمل كلمته حتى وجد نفسه مجرورا تتدافعه الأيدي، ويحاول بعضهم ضربه فسمع صيحة (الله أكبر) داخل المدرج ففزع الرفاق، وهربوا ظنا منهم أنه هجوم مدروس للطلبة الإسلاميين.. نجا بأعجوبة من أيدي الرفاق وتبين له أنها صيحة أحد أصدقائه حين خاف عليه من سطوة الجموع الهائجة..

- أفزعتهم يا سعد أنت جيش وحدك!

- الخفافيش تخاف النور.. انظر إليهم يتجمعون في الساحة

- الانسحاب الآن من الباب الخلفي خير من التلويح للثور الهائج بالشارة الحمراء.

دار بين خالد وسعد حديث أخوي جميل عن الحياة الجامعية والمحاضرات والأوضاع الطلابية، وشاركهم بعض الأصدقاء فكانت ملاحظاتهم كلها تتجه إلى صورة المناضل اليساري الموزع بين انتمائه الاجتماعي وايديولوجيته القاتمة التي فرضت عليه الإحساس بالقهر الوجودي.. وعبثية العالم مما انعكس بوضوح على سحنة وجوههم المسودة المخطوفة وشعورهم الشعثاء وهيأتهم الوسخة لأن الاهتمام بالنظافة سمة برجوازية تتناقض مع السلوك البروليتاري ومقتضيات المرحلة النضالية.. وانطلاقا من هذا التصور تم تصنيف المواقف والعلاقات وإطلاق الاتهامات ضد المخالفين تصل إلى تلفيق التهم وتزوير الوقائع لتشويه الآخر.. حتى وجدنا من يفتح حلقة لمحاكمة طالبة كانت مع صديقاتها تغني (شمس العشي قد أشرقت) لدفع سأم طول الصف أثناء انتظار الحافلة. وقد علل الرفيق محاكمة الطالبة:

- .. إنها تمارس وعيا برجوازيا زائفا لا يقبل في الساحة النضالية.. في الوقت الذي تنتشر فيه الاعتقالات والمحاكمات.. تحاول القوى الرجعية تزييف ثقافة النضال واستبدال الأغنية الملتزمة بالأغاني والموسيقى الرجعية البرجوازية التي لن نسمح بوجودها في الحرم الجامعي حتى لا نميع الثقافة النضالية.. فهذه الرفيقة عنصر مشبوه موجه من القوى الإمبريالية البوليسية لتمييع ثقافتنا على حد ما تشير إليه أدبياتنا النضالية..

تدخل بعض الطلبة فأنقذوها من المحاكمة وهي تبكي وتقول:

- (ويلي ويلي هل أنا خطيرة لهذا الحد؟ شتت الله شمل نضالكم وأراحنا منكم أيها المتخلفون الوسخون.)

يذكر خالد كيف وقع هو نفسه في شرك المحاكمة حين اعترض على مقاطعة بعض الدروس؛ فالقرار ليس مدروسا بعناية والمقاطعة لن تحقق إلا صراعا مع أستاذ مادة التاريخ، والأولى فتح حوار معه عبر لجنة القسم حتى نتفادى انتقامه في الامتحان الشفوي.. وما أن دخل الأستاذ حتى توجه إليه خالد وحدثه بكلام لبق حول كثرة المواد وتداخل المعلومات التي تحتاج إلى توثيق، خاصة في مادة التاريخ التي

أجمع الطلبة على ضرورة إملاء ملخص وجيز بعد انتهاء المحاضرة، تفضلا وتكرما من الأستاذ، لتكون مرجعا للامتحان الشفهي..

تقبل الأستاذ الطلب ببساطة وأشاد بلباقة الطالب.. فثار الرفاق مرة أخرى واتهموه بالعداء للحركة الطلابية التقدمية.. ولمنظمتنا العتيدة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب (أ.و.ط.م) وعند انتهاء حصة التاريخ تم رفع الشعارات في وجه خالد: - (عناصر مشبوهة الطلبة رفضوها)..

تحداهم واستهجن أسلوبهم الفظ في التعامل مع الأساتذة والطلبة وذكرهم بما وقع مع أستاذ مادة "الأدب الحديث" حين توجهت لجنة فرضت نفسها على الطلبة لحوار الأستاذ فطالبوه بالشرح والإملاء فرفض، لأن ذلك يمس بكرامة الجامعة ومصداقية الطالب.. فتدخل عريف اللجنة ليقول:

_ أستاذ نحن نخاطبك باسم المنظمة العتيدة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب [أُوطِمْ].

غضب الأستاذ -رغم ميولاته اليسارية المعروفة- وقال:

- ممتاز! لم أكن أعرف أن معك الخاتم والتفويض، تفضل خذ مكاني.

وانسحب محتجا ومستهجنا هذا السلوك الجاف لما فيه من إهانة واحتقار لكرامة الأستاذ..

ذكرهم خالد بالواقعة ليفهمهم أن العلاقة مع أساتذتنا يجب أن يطبعها الاحترام مهما كان موقفنا منهم.. فتوالت الشعارات وتدخل مناضل تغلبه لهجته الأمازيغية وألفاظه اليسارية المسكوكة وعباراته المشهورة التي أصبحت مدار سخرية الطلاب:

- تحية نضالية للرفاق والرفيقات. إلى أي حدٍّ؟ (ينطقها رقيقة مشددة ومنونة مع لحظة صمت وجيزة قبل متابعة الكلام) يمكن السكوت عن هذه العناصر المشبوهة وإلى أي حدٍّ؟ يمكن لمنظمتنا تجاوز التسلط القمعي للأساتذة وإلى أي حدٍّ؟ يمكن التوافق مع هذه الأوضاع الكارثية والمذبحة التي يشرف عليها الأساتذة.. [يسف سيجارته ويتابع] قلت المذبحة المتمثلة في نتائج الامتحانات والتي أعتبرها إلى حدٍّ ما استهدافا لمناضلينا ومناضلاتنا فإلى أي حدٍّ؟ سنصمت ونتجاوز.. وإلى أي حدٍّ؟ (تعالت الضحكات وتمت التغطية بالشعارات، وتابع الرفيق وهو يرفع شارة النصر ويسف سيجارته) المهم.. تحية نضالية.

واستمرت الضحكات والشعارات وتابع مناضل آخر وهو يشير إلى خالد:

- (...) هذه العناصر المشبوهة والتي تنتمي إلى الاتجاه الرجعي الظلامي البوليسي تحاول تحريف مسار المعركة ضد النظام العميل للصهيونية والرجعية العربية وتشوه النضال ضد الفاشية والقمع البوليسي الذي يمارس الحذر على منظمتنا العتيدة (وترفع الشعارات: "يا طلاب اتحدوا في أوطم قوية قواعد متينة حتى الانتصار حتى الانتصار " ويأخذ نفسا من سيجارته ليستمر في سرد الأسطوانة المشروخة) ومن هنا ندين كل العناصر المتآمرة على منظمتنا وقد سمعت هذا المشبوه [يشير إلى خالد] يسب منظمتنا..

لم يتمالك خالد نفسه فقاطعه وطالب بحقه في الرد والتدخل نافيا عنه كل هذه الاتهامات ومشيرا إلى المتدخل:

- أنت جاهل وكذاب..

وبسرعة تدخلت إحدى الرفيقات لتساند زميلها:

- أنا سمعتك تسب أوطم.. أنت عنصر مشبوه..

وهذه المرة تدخلت طالبة من مدينة تاونات تحاول تهدئة الوضع:

- كبرتم الموضوع كثيرا، أي علاقة للحوار حول الدروس مع الأساتذة بالنضال والقمع والإمبريالية والبوليس؟! ما هذا المنطق التافه؟! خالد لم يخطئ في حق المنظمة الطلابية..

حاولوا اسكاتها وإحراجها بتهم الخيانة للنضال وجرها للمحاكمة.. وبدوافع قبلية تدخل بعض الرفاق التاوناتيين اليساريين لمنع الإساءة إليها، فالانتماء القبلي أقوى من الانتماء الأيديولوجي في الساحة الجامعية وفي الوطن العربي، وتدافعت الجموع بين ساخط ساخر، ومناضل يسجل لحظة انتصار على (القوى الرجعية!).

أحس خالد أن الحرس الراديكالي يصعب التعامل معهم بلغة العقل والحوار المنطقي فكل شيء منمط وفق خطة ايديولوجية جامدة لا تسمح برؤية الأشياء على حقيقتها، ولا تترك مجالا للتفكير الحر، والتواصل مع المخالف لبناء وحدة نضالية ضد القهر والظلم والفساد السياسي.. فالأيديولوجي يتصور العالم بلون واحد وفكر واحد يصل إلى حد إلغاء الآخر ويتبنى سلوكا قمعيا مسنودا بمفاهيم تنظيرية تجيز ديكتاتورية البروليتاريا؟! ما الفرق إذن بين قمع النظام وقمع الرفاق؟ **من يمارس القمع لا يجوز له محاربته. والعقلية التي تربت على تبرير العنف و إقامة المحاكمات لن تكون أبدا ديموقراطية**.. أصبحت

الجامعة تعيد إنتاج السلسلة القمعية، لذلك وبكل بساطة وجدنا انخراطا سهلا للمناضلين في سلك وزارة الداخلية بعد تخرجهم من الجامعة وتحولهم إلى أداة قمعية خطيرة ضد المطالبين بالحرية والديموقراطية..

الخطاب اليساري الفصائلي في الجامعة وجد رغبة قوية كامنة في النفوس المقهورة لتحقيق التسلط والاحساس بالذات خاصة مع الطلبة الآفاقيين الذين تلقوا تربية قاسية في أوساط تقليدية محرومة.. وانفتحوا فجأة على بعض المفاهيم الكبرى التي تعيد تشكيل رؤيتهم للحياة، فيخرج العفريت من القمقم متحررا من القهر الاجتماعي والجنسي والسياسي ومحيطا نفسه بسياج من القناعات التي لا يسمح لأحد بتجاوزها ومناقشتها.. ثور هائج لا تلوح له بشارة حمراء.. والغريب أن أكثر المناضلين بعد التخرج والاندماج الوظيفي يحملون معهم نفس المنطق الإقصائي رغم حديثهم عن الحرية الفكرية والديمقراطية.. فتجدهم يفرحون بحكم العسكر والانقلابات وإعدام الخصوم وحرقهم.. أي سادية هذه التي تدفع إلى الحقد على المخالف إلى هذه الدرجة؟ أليس في الديمقراطية والحرية متسع للجميع؟! أم أن الأمر تجاوز المجال الفكري إلى التركيبة النفسية المريضة والمعقدة للمجتمع العربي؟!

فكر خالد في تغيير استراتيجيات التعامل مع هذه العقليات فلربما يصل إلى توافق مرحلي يضمن له السلامة من الاصطدام والحفاظ على قنوات التواصل بينه وبينهم ما أمكن. ففتح نقاشات طويلة ومرهقة ومرت أحداث اكسبته احتراما بين الطلبة، وتقاسم آراءه مع الكثير من الرفاق فاحترموا فيه الجدية والانضباط، وأصبح رغم الكثير من المشاكسات يستشار في المواقف والقضايا.. إلا أن القطيع العاطفي المصنع ظل يصنفه في خانة الأعداء الظلاميين ويناصبه العداء، لذلك كان يلجأ كثيرا إلى ذكائه قبل أي تصرف يمكن ان يهيج القطيع.. من ذلك ما وقع يوم ضُبط أحد الطلبة الأفارقة يشرب من قنينة خمر أخفاها في كيس بلاستيكي أسود، وهو يتناول غذاءه وسط المطعم الجامعي. اقترب منه خالد وسأله عما يوجد وسط الكيس فرائحة الخمر فاحت في المكان، فقال:

- c'est du café إنها القهوة

لجأ خالد إلى مجموعة من الرفاق المندفعين المغمورين ونبههم إلى وجود خرق لأعراف المنظمة الطلابية أوطم، يمارسه طالب إفريقي.. اندفعت المجموعة وأمسكوا بالطالب بينما سحب منه خالد القنينة وأفرغها أثناء انشغالهم بإخراجه من المطعم ومناقشته. وهو يحاول أن يجد

خيطا وديا للتواصل مع الجمع الهائج فيقسم بلكنته الإفريقية العربية والفرنسية:

(والله العظيم انا مسلم...)

(Écoutez-moi : je vous jure que je suis musulman)

فكان كمن يصب الزيت على النار، ويؤجج الأحقاد ويثير المواقف الراديكالية الملحدة. فُتح المجال للنقاش فتدخل أحد المناضلين الجهابذة ليصف الخمر بالظاهرة التقدمية:

- أيها الرفاق أيتها الرفيقات تحية نضالية لرفاقنا المعتقلين، يجب أن نحدد موقفنا بوضوح من هذا الحدث فالخمر ظاهرة تقدمية تعمل على كسر القيم الاجتماعية والدينية التي لا تتوافق وتوجهات الحركة الطلابية العلمية التقدمية.. وإن الرفاق الذين أسهموا في هذه العملية ينوبون عن قوى ظلامية فاشية بوليسية غائبة عن الساحة النضالية. ينوبون عنهم في ترسيخ فكرهم الرجعي اتجاه هذه الظاهرة التقدمية...

تراجع خالد إلى الوراء يتابع المشهد بسخرية ويرصد ردود الفعل وإذا بالطالب الإفريقي يلتفت لخشخشة خلفه فيشاهد قنينته البلاستيكية مقلوبة فارغة، فيثور يسب ويلعن:

- (les salos vous m'avez vider ma bouteille) أفرغتم قنينتي أيها الأنذال.

ويهاجم المتحلقين حوله فيتشتت الرفاق يمينا ويسارا ولم ينقذهم من غضبه وهو شبه سكران إلا بعض الطلبة الأفارقة الذين تدخلوا وسحبوا زميلهم خارج الجامعة.

وبعد أيام من هذا الحادث بينما هو في ساحة الكلية إذ ناداه أستاذ مادة الأدب الجاهلي باسمه -ولم يستغرب ذلك فقد كان يتواصل بلباقته المعروفة مع الكثير من الأساتذة ويساهم في النقاش المعرفي للمحاضرات حتى اشتهر اسمه بين الأساتذة- وطلب منه أن يأخذ المطبوعات من مكتب الشعبة ويوزعها على الطلبة. تبسم خالد ففهم الأستاذ قصده وقال:

- ما كلفتك أنت إلا لعلمي بأمانتك فقد سبق أن كلفت أحد المناضلين فاستغل الطلبة وباعهم المطبوعات المجانية.. أعرف كذلك قدرتك ومهارتك في مداراتهم.

الأمر يحتاج إلى تدبير. أخذ المطبوعات، ووقف يطل من ممر الطابق العلوي لبناية الكلية على الساحة فتبين له من بعيد جمع أمام كلية العلوم ووقف في باب المدرج ينادي صديقه سعد فانتبه الرفاق

وتوجسوا من دخوله وخروجه وقبل أن يقترب سعد قال خالد بصوت مسموع:

- سعد. سعد. هناك إنزال لبعض الإسلاميين في كلية العلوم

فتنادى الرفاق فيما بينهم وطاروا لمنع الإنزال الوهمي. فاستغل خالد الفرصة ووزع المطبوعات على الطلبة في هدوء.. نجحت الخطة دون محاكمة أو اصطدام. وتداول الرفاق الأحداث والوقائع وعلموا أن خالدا وراء ذلك كله، فتسابقوا بمختلف فصائلهم للتعرف عليه وعلى الخط الذي يمثله، وفتح النقاش الفردي والجماعي، فكان لبقا في الحوار يتجنب الخلافات، ويركز على المشترك السياسي والثقافي، وهي مساحة كبيرة تكاد تلغي الخلفيات العقدية المختلف حولها.. فاتساع دائرة القهر والتضييق على الحريات العامة والتسلط الإمبريالي على الشعوب والصهيونية والديكتاتوريات العربية.. كل هذا مشترك يمكن التعامل معه بنضج ومسئولية وبرنامج متفق عليه بعيدا عن التشنجات والصراعات التي تستهلك الجهد والوقت وتفتح مجالا للتفرقة والضعف.. أعجب الكثير من محاوريه بطريقة تناوله للأحداث وتحليلها وترتيبه للأولويات وبدأوا يستفسرون عن خطه الحركي والسياسي، فصنفوه ضمن بعض الاتجاهات المتخيلة في ذاكرتهم دون

أن يقر هو نفسه بأي توجه أو يعلن انتسابه لأي فصيل لأنه كان أصلا متحررا من الانتماء الحزبي وذلك ما أكسبه حرية في التفكير والتحرك والنقاش والتواصل مع الجميع.. ولعل ما يبدو مستغربا هو انتصاره وصموده الغريب أمام تاريخ من اليتم والقهر والفقر منذ وفاة والدته وهو لم يتجاوز الست سنوات، فعاش يقاوم ويواجه وأكتسب خبرة في إدارة الصراع وتجاوز الأزمات ومعرفة تفاصيل الأفكار وخبايا النفوس. كما أورثه ذلك حالة من الإحساس الدائم بالتوجس من أي مغامرة أو مجازفة غير محسوبة ومدروسة. ولم تكن الأزمات في جامعة فاس بالقليلة أو النادرة، فقد كان الصراع بين الفصائل أشبه بالصراع بين القبائل العربية القديمة أو نسخة مصغرة من صراع الأنظمة العربية الحديثة التي تفتعل أحداثا كبرى وتخلق عداوات مجانية لتغطي على جرائمها، وتلهي الناس عن المشاكل الحقيقية للبلد. وهو السيناريو الذي خطط له القاعديون ونفذوه للتغطية عن فشلهم في تدبير الشأن الطلابي والتعامل بعقلانية مع مستجدات الساحة فهاجموا مسجد كلية الشريعة بالهراوات والسيوف واعتدوا على المصلين فسالت الدماء وخربوا المسجد وبعثر أحدهم المصاحف وخرج يصيح ساخرا من المعتقدات الدينية بكلمات بذيئة وساقطة.. مما استثار العاطفة الدينية، وجعل ردود الفعل العنيفة مرتقبة في أي لحظة، فاختبأ

الرفاق وأدان بعضهم بعضا، واعتذروا بأن الفاعل كان سكرانا في غير وعيه، وهو مستعد للاعتذار كما عبر عن ذلك شخصيا لخالد الذي أبدى موقفا صلبا من هذا السلوك، وحذر من رد حاسم غير متوقع. فالمسألة تجاوزت كل الخطوط الحمر، ولا يمكن التحكم في الردود الانفعالية فردية كانت أو جماعية.. عاشت الجامعة طيلة هذا الموسم توثرا وترقبا ليفتتح الموسم الجديد بمعركة حاسمة -وصل صداها إلى خالد وهو موظف في جنوب البلاد- حاول فيها فصيل إسلامي الثأر لإهانة المقدسات، وتم فيها تصفية الحسابات وتوظيف الحدث من طرف اليسار فتباكى على الحرية وانتشار القمع والإرهاب كما استغلت السلطة المعركة التي كانت تنتظرها أو تدفع باتجاهها لإعادة ترتيب أوراقها داخل صفوف الحركة الطلابية.

وقبل مغادرته الجامعة كان دائم التذكر للحظات المرح التي عاشها رفقة زملائه خاصة في الدراسات العليا حين كان العميد يجمع في حصة واحدة طلبة اللسانيات وطلبة الدراسات الإسلامية فكان يسبقه ملازمه وحارسه الشخصي حاملا مجموعة من المجلدات يضعها على المكتب ويضبط الميكرفون ويتأكد من تريب القاعة وجلوس الطلبة، ثم يقف أمام الباب. ليُقْبِل الأستاذ العميد بنظارته السوداء وجلبابه المحبب الأبيض الأنيق منتعلا بلغة زيوانية صفراء، ويسير في تعال

وخيلاء فيقف خلف المكتب ووراءه ملازمه يمسك له الكرسي، ريثما يستقر في جلسته.. ويبدأ العميد بحدج طلبته بنظرة فاحصة كأنما يحصي الحضور والغياب، ويفتتح الحصة بأحاديث عامة عن العلاقة بين اللغة والدراسات الإسلامية، ثم ينتقل للتعليق على أحداث الأسبوع داخل الساحة الجامعية لتكون كلمته كلمة توجيهية للفصائل ويردف كلامه ببعض النكات الفاسية (من مدينة فاس) وعلاقة الفاسي بزوجته، ويشير عمدا إلى تعصبه للعرق الفاسي.

وفي إحدى الحصص، التي سبقها صراع بين الطلبة الإسلاميين واليساريين، تعرضت سيارة العميد لبعض الحجارة الطائشة.. فدخل الأستاذ العميد غاضبا، ودون مقدمات هدد طلبته وأشار إلى معرفته بأن الطلبة الصغار مدفوعون بتوجيهات طلبة الدراسات العليا الذين يقفون وراء ما يحدث.. وهم زعماء الفوضى في الساحة.. وتحدث عن صديقه الملحد الذي تحول إلى سلفي ملتزم، ليؤكد أن الإلحاد ظاهرة عابرة وليست أصلا في ثقافة المغاربة.. وأن جميع الطلبة اليساريين سيتحولون مع مرور الزمن إلى مسلمين وهم أصلا مسلمون وكل المغاربة مسلمون.. أما هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا علينا إسلاما خمينيا فإننا نرفضهم، ولا نقبلهم لأن الخميني ليس مسلما والإسلام بريء منه، وحضارتنا العربية ستعود أقوى مما كانت يتعايش فيها

المؤمن والملحد.. وستنتج هذه الحضارة عباقرة أحسن وأقوى من أم كلثوم وعبدالوهاب.. (فضحك الجميع)، ولكنه تابع كلامه في ثقة ويقين عن أم كلثوم التي يعشقها كثيرا ولا يمكن لأحد أيا كان انتماؤه إلا أن يرفع القبعة -لهذه السيدة الرائعة- كما رفعت شأن الفن والحضارة العربية بعيدا عن تعصب المتطرفين من اليساريين والخمينيين الغلاة.

خرج بعد ذلك وفكر في محاولة لتهدئة الصراع بين الطلبة فأرسل يطلب لجنتين للتحاور معه، واحدة عن الإسلاميين والأخرى عن اليساريين وتطوع خالد مع لجنة الإسلاميين وحضر الجميع في نفس الوقت فبدأ بلجنة اليسار ودخل الفريق فوجدوه مستديرا إلى الحائط ببذلته السوداء وغليونه المقوس فاستدار إليهم وهو ينفث الدخان من نصف فمه ويمسك الغليون بالنصف الآخر في حركة شبيهة بحركة الكاوبوي المنتصر، وأشار إليهم بالجلوس على الأريكتين الطويلتين يسار ويمين مكتبه.. أنهى الحوار معهم وخرجوا كما دخلوا لا يعرفون لم استدعاهم سوى أنهم استمعوا لخطبته البرجوازية حول نهاية النظام الاشتراكي وانهيار الاتحاد السوفياتي الذي لا يجب تكرار أخطائه في الثقافة والسياسة.. وانتظر الطلبة الإسلاميون لأكثر من نصف ساعة حتى هددوا بالانسحاب لكن خالدا رفض ذلك لئلا تتخذه الإدارة وسيلة للتشهير والتهميش.. فتح باب المكتب فإذا العميد بلباسه

التقليدي وطربوشه الفاسي منحنيا في خشوع على المصحف الموضوع على رافعة خشبية فوق المكتب، فسلموا عليه ورد السلام بيده دون أن يرفع رأسه أو يشوش على خشوعه.. وبعد لحظات ختم قراءته بصوت مسموع:

- [إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء] صدق الله العظيم وصلى الله وسلم على رسوله الكريم (ومسح بيديه على وجهه وصدره)

ثم رحب باللجنة وألقى خطبته عن التطرف والغلو والوسطية والتسامح في الإسلام وأنهى اللقاء.

** ** ** ** **

ومرة التقى الأستاذ العميد ببعض طلبته قرب ممر شعبة اللغة العربية فتوقف موجها:

- ماذا تفعلون هنا؟

- خرجنا من حصة اللسانيات وننتظر الأستاذ؟

- أنتم طلبة الدراسات العليا ليس لكم وقت ليضيع في الانتظار، سأكلفكم ببحث مهم

- مرحبا أستاذ

- عددكم ثلاثة

- نعم أستاذ

- والبلاغة العربية تنقسم إلى ثلاثة أقسام

واستدار إلى الحائط ليتخذ منه سبورة وهمية لتقسيم البلاغة بسبابته وهو يقول:

-أولا علم البيان. (فوقع أصبعه مباشرة على مخاط ملتصق بالحائط تحت شباك تسليم الوثائق الإدارية)

فهرب الطلبة وهم ينفجرون ضحكا، بينما صرخ العميد رافعا أصبعه إلى السماء وهو يلعن الطلبة (الوسخين) وينادي ملازمه، فجاء مسرعا وأحضر قنينة الماء والصابون وحضر الأعوان وغسلوا كل الجدران المؤدية إلى مكتب العميد.

**********

وكان من المقرر أن يدرس الطلبة النحو الصوري مع الأستاذ نائب العميد الذي افتتح اللقاء الأول في مكتبه وأراد التعرف على طلبة الأدب وطلبة اللسانيات داخل المجموعة حتى يكيف الدرس مع الوضع وتكون المقاربة دقيقة ومفيدة. سأل طلبته واحدا واحدا:

- أنت؟

- لسانيات

- وأنت؟

- أدب

(....)

وهو يسأل دخل طالب متأخرا ولم يكن قد عرف سياق السؤال.. فتوجه إليه الأستاذ:

- وأنت من أين (منين)؟

فأجاب بعفوية:

- من قرية (بًّا محمد).

فانفجر الجميع ضاحكا فيما بقي الشرقي مبهوتا لا يعرف بم ابتلي ولا كيف يتصرف.

-2-

## الهموم الخاصة

وضعه الأسري هش للغاية يعيش في صراع مع زوجة أبيه التي لم تترك فرصة دون الوقوف في وجه طموحاته، فكثيرا ما تطالبه بالعمل لمساعدة والده.. ولم تترك فرصة تمر دون التحريض عليه خاصة بعد أن حصل على البكالوريا ورفض المشاركة في مباراة الدرك الملكي أو الالتحاق بمدرسة المعلمين التي تم قبوله بها، مما أثار غضب والده أيضا. وعندما دخل الجامعة طالبته باقتسام المنحة مع الأسرة للمساهمة في المصاريف اليومية وبدأت تمنع عنه الطعام.. وتُغِير صدر والده عليه.

اقتربت الامتحانات وهو يحاول مداراتها ليتفرغ ما أمكن لمذاكرته، لكنها أصرت هذه المرة وقررت إرباكه.. فوقفت في باب البيت وهي تحتج على استعماله مصباح الكهرباء دون المساهمة في ثمن الفاتورة. ثم دخلت البيت وانتشلت المصباح في غضب وتوتر، وهي تصرخ:

- من لا يساهم لا يستفيد..

لم ينفعل خالد لمعرفته التامة بخطتها وهدفها من الهجوم. فقال محاولا تجاوز الصراع:

- والله ما تكفيني المنحة حتى لثمن الانخراط الشهري في الحافلة وشراء بعض كتب المقرر. لأي شيء تكفي مائتي درهم [20دولار] في الشهر..

قاطعته ولم تترك الفرصة لتدخل الوالد:

- جميع الطلبة يساهمون من منحتهم في مصروف الأسرة إلا أنت. أعطنا المنحة ونحن نؤدي عنك مصاريف الكتب والحافلة..

كانت تتلذذ باستقوائها في هذه اللحظة الحساسة من مصير خالد؛ فالأب يتجنب الصراع مع زوجته غير مكترث بأمر الامتحانات لأن ابنه اختارا طريقا مجهولا بعد رفضه الالتحاق بمدرسة المعلمين، والجامعة ليست إلا سبيلا للعطالة والتشرد.. وكل ما يراه من استعدادات وسهر ما هو إلا سير في طريق الفراغ كما تقول زوجته وتلح وهي تخفي خبثها ومكرها.. مُحاوِلةً كسر مسار خالد وضمان سكوت الوالد.

لم يتمالك خالد دموعه، وخرج ليقتني شمعة بدرهم من الحانوت.. ثم

عاد إلى بيته المظلم. وجلس يغالب نفسه ويشجعها على الصمود، فكلها أيام عشر ومدبرها حكيم. أوقد الشمعة وهو يغالب القهر والدمع

ويستذكر دروسه، وما هي إلا لحظات حتى فُتح باب البيت بقوة وارتفع صراخ زوجة الأب:

- إيّيه، لديك المال فقط لشراء الشمع وترفض أن تساهم معنا في المصروف اليومي...

وبسرعة هوت بيدها على الشمعة فكسرتها في انتظار ردة فعل من خالد أمام أبيه لتحول الليلة إلى مأتم وتهدد بالخروج من الدار وتكون فرصة لإلهاء خالد عن مذاكرته..

فهم خالد قصدها فأخذ دفتره وانسحب بهدوء.. اتجه إلى محطة القطار القريبة من الحي، وجلس تحت مصباح مكتب التذاكر المغلق، فتح دفتره لكن الدموع غلبته، وتذكر أمه التي غادرت الدنيا وهو في السادسة من عمره وكيف كان كلما رأى أما تعانق طفلها تضمه إليها تقبله وتداعبه تدمع عيناه.. وحين يدخل الدار ولا يجد أمه يحس بالفراغ يبتلع كل شيء، ويشتم رائحة الموت تطوف في المكان، فيفر إلى السطح ينزوي وحيدا ليخفي دموعه، ويكتم آهاته.. وذات مرة وهو يبكي سمعت الجارة من السطح المجاور شهقاته فأطلت عليه ونادته:

- ولدي ولدي خالد.. لم تبك اقترب مني..

- اشتد بكاؤه وشهيقه وقال: أريد ماما.. أريد ماما

لم تتمالك الجارة نفسها فشدته من يديه وجرته إليها وهي تغالب الدمع:

- أنا أمك يا ولدي لا تبك أنا أمك..

أخذته معها وناولته بعض الحلوى، وهي تترحم على جارتها، وتدعو للولد وتصبره على المصاب.. أي صبر تتحمله نفس طفل صغير يطحنه اليتم كل لحظة، ولا يشغله إلا التفكير في الموت الذي خطف أمه فعاش على ذكراها.. مشتاقا لرؤيتها لحنانها لحضنها، وكثيرا ما كان يسأل ربه أن يأخذه إليها ليعيش الحنان والرحمة بعيدا عن الوحشة والوحدة والقسوة والجفاء.. تذكر مِحَناً كثيرة.. تذكر الحبيبة الغالية كيف غادرت وبقي تتقاذفه زوجات الأب حتى تعايش مع القهر والألم واليتم.. انتهت ردات فعله من زمان، فقد تشرب المحن كلها، وعرف أن لا أحد في الدنيا أرحم وأطيب وأغلى من قلب الأم، فبدأ يفكر في سبيل للخلاص عن طريق الصبر والصمود.

مسح دموعه وعاد إلى دفتره وما أن تبثت عيناه على السطور حتى هاجمه كلب حارس المحطة، ففر هاربا وجلس في الظلمة وحيدا يتملى المصائب المتتابعة ويفكر في الحل، فقرر أن يستبدل الليل بالفجر،

وبدأ يخرج بعد صلاة الفجر مع شروق الشمس يستذكر ويتهيأ للامتحان فاستمتع بالجمال الذي غاب عن النائمين وعاش لحظات جميلة مع الطبيعة أكسبته رقة نفس وصفاء روح وجلاء بصيرة..

في الليلة الأخيرة من أيام الاستعداد للامتحانات تأخر خالد كعادته مع أصدقائه فلم يجد عشاء حين عودته، لقد تعود لأكثر من أسبوع على المبيت بدون عشاء فزوجة أبيه تستغل غيابه لتضع المائدة وتنهي كل شيء. أحس أن افتعال المعارك سيبدأ مرة أخرى لإرباك استعداده للامتحان كما أحس بلا مبالاة الوالد.. كتمها في نفسه ولم يبد حرجا ودخل بيته المظلم، واستسلم للأفكار.. وكان من عادة أبيه الخروج باكرا والعودة إلى ما بعد العصر فوجدت زوجته فرصتها للانتقام من خالد وإرباك استعداداته فخبأت في بيتها كل لوازم الإفطار.. لم يهتم خالد ولم يعترض.. لا بد من الابتعاد عن المشوشات صبيحة الامتحانات..

لم يجد في جيبه حتى ثمن تذكرة الحافلة فسار ماشيا جائعا لأكثر من ست كيلومترات حتى وصل كلية الآداب، فشاهد زملاءه يترجلون من السيارات والحافلات ويسرعون نحو قاعات الامتحانات، فأخذ مكانه مثقلا بهمومه واجتاز الصبيحة الأولى بهدوء ثم عاد أدراجه مثقل الخطى يفكر في ترتيبات الاستعداد لما بقي من مواد الامتحان.. لم يجد

غذاء.. ولا كسرة خبز يغالب بها الجوع، فقد ذهبت زوجة الأب لزيارة إحدى قريباتها وخبأت كل شيء. فهم الرسالة واستغل غيابها للمذاكرة ثم خرج قبيل عودتها ليلتقي صديقه حسن، فحصل منه على درهمين دون أن يطلعه على السبب.. وطار راكضا إلى المطعم الجامعي قاطعا المسافة الطويلة راجلا للمرة الثالثة في نفس اليوم، ليظفر بوجبة العشاء التي تقدم للطلبة بدرهم ونصف ولم ينس التزود لليومين القادمين ببعض بقايا الخبز من طاولات المطعم. ثم عاد يقطع نفس الطريق راكضا يحمل مؤونته وقد استعاد نشاطه وحيويته.. وأمضى اليوم الثاني بنفس الهموم والعزم، ثم غادر قاعة الامتحان ليجد في ساحة الكلية صديقه حسن منخرطا مع بعض الرفاق حول مواضيع امتحان مادة الفلسفة بين مطالب بالمقاطعة ورافض لها، فانسل حسن من المجموعة ليرافق خالدا ويستفسره عن أحواله وامتحاناته وهمومه:

- حالك لم يعجبني يا خالد بالأمس رأيتك منكسرا مهموما حين طلبت الدرهمين، هل هناك مشكلة يمكن حلها بدرهمين..

قاطعه خالد:

- لقد فتح الدرهمان أبوابا موصدة، وأسكتا جوعة بطن، ووفرا مؤونة يومين..

- واو. عودتنا يا عبقري على المفاجآت ماذا لو كانت ألفي درهم؟! هل كنت ستحل أزمة الجوع في إفريقيا؟!

صمت خالد وهو يحاول تغيير مسار الحديث حتى لا يثير الأشجان فلحسن من الهموم ما يكفيه ويصرفه عن التفكير في أزمات إفريقيا وصراعات الآخرين.. لكن حسن بحسه الرهيف ولطافة روحه أحس أن الوضع يتجاوز الكلام الودي وأن شيئا ما يجري في النهر غير هذه الملاطفة:

- قل لي أخي خالد، ما كانت حاجتك بالدرهمين؟ ملامح وجهك متصلبة كأنك في حرب..

أطرق خالد مرة أخرى واعتذر عن الحديث لكن رموش عينيه امتلأت دمعا وفضحت المستور، فوجم حسن من هول هموم صاحبه، وعاتبه عن تكتمه وأقسم أن يقضي معه ما بقي من أيام الامتحانات.

انتهت الامتحانات وظهرت النتائج فكان في الترتيب الأول بامتياز. نظر مرة أخرى إلى النتيجة معلقة على نوافذ المكتبة فحمد الله ونسي همومه

وآلامه وشاهد الناجحين بنقط متوسطة يعانقون أهاليهم ويركبون السيارات وهو الأول في الترتيب بامتياز لم يجد مهنئا ولا حتى ثمن تذكرة الحافلة. لا بد أن يبحث عن شغل هذا الصيف ليكف نفسه عن الآخرين ويوفر بعض ما يستقبل به العام القادم.

-3-

# العلاقات

أكسبت أخلاق خالد ولطافته وأسلوبه في التواصل، وكذلك النتائج المتميزة التي حصل عليها آخر السنة، حظوة ومنزلة عند الأساتذة وسهلت له هذه العلاقة الطيبة الحصول على الكثير من المراجع والكتب الحديثة التي يستعيرها منهم. فكان لا يضيع دقيقة واحدة حين يحصل على كتاب حتى ينهيه قراءة وتلخيصا، مما أهله للدخول في مناقشات معرفية عالمة وموثقة داخل المدرجات والفضاءات الثقافية وفكر في إنشاء مجلة تتناول موضوعات فكرية وأدبية متخصصة في فترة قلت فيها المطابع وغاب الدعم للمشروعات الطلابية، ولا تستقبل الجرائد والمجلات إلا الأسماء الوازنة، فكان الإصدار الأول يدويا بسيطا في نسخة وحيدة تداولها أعضاء المجموعة حتى وصلت إلى أحد الأساتذة فحبذ الفكرة، وأبدى استعداده للمساهمة في المشروع الثقافي.

ودار نقاش بين الطلبة واشتم الرفاق -على عادتهم- رائحة تنظيم طلابي بديل مدعوم بالنظام البوليسي!!... للإجهاز على المنظمة الطلابية التقدمية العتيدة.. وتوصلوا إلى الرأس المدبر ودار النقاش حول

المشروع الثقافي الحر، وانطلقت الاتهامات بالخيانة والعمالة فيما تفهم بعض العقلاء الفكرة ورحبوا بها شريطة أن تكون تحت إشراف التنظيم الطلابي لخدمة الفكر التقدمي.. ولكن صوت الغوغاء والتطرف كان أقوى وأعلى من أي صوت مما أجهض أي محاولة للتقارب والتفاهم.. وأيقن خالد أن التطرف أيا كان هو إلغاء متميز للفكر ومصادرة للمعرفة لأن الرؤية تصبح مغلقة داخل سياج الإيديولوجيا.. ولا تتيح من ألوان الطيف إلا الأسود والأبيض؛ إذا لم تكن معي فأنت ضدي. لا مجال للاختلاف والتمايز تنميط ينتج نسخا أشد تطرفا وبؤسا يَسْهُل استدراجها والتحكم فيها فتصبح وسيلة قمعية تشتغل ضد نفسها ومجتمعها لا تنتج إلا الكراهية والتخلف ولا تجيد إلا المؤامرات.

قرر خالد تجاوز الفكرة والاشتغال خارج المحيط الجامعي مع الحفاظ على التواصل، والابتعاد ما أمكن عن توثير الأجواء وتسميم العلاقات والدخول في صراعات تشغل الجميع وتستهلك الوقت فيما لا ينفع ولا ينتج إلا عقليات الشؤم والقطيعة. ذلك ما مهد لتجاوز المطبات والدخول في نقاشات هادفة وهادئة غيرت شكل الصراع وأوجدت علاقات طيبة ومحترمة، وأصبح خالد يشارك في النقاشات ويطرح آراءه بحرية في بعض الحلقات مستفسرا وموجها محاطا ببعض أصدقائه

وأصبح معروفا مشارا إليه بين الطلاب. وكانت كثيرا ما تقترب منه طالبة شقراء تسدل شعرها الحريري على ظهرها فينساح على كتفيها ليتدلى متدفقا على صدرها، فيبدو وجهها ناصعا كالقمر محاطا بهالة ذهبية، فتسرع إلى تجميعه بيدها اللينة الرقيقة بين السبابة والإبهام وتقذفه وراءها -وهي تدفع رأسها إلى الخلف- لينساح مرة أخرى وتتكرر العملية باستمرار ملفت وجذاب.. كان كثيرا ما ينظر إليها أحيانا لحد الشرود دون ان يكلمها أو يحاول إيجاد تفسير لتقربها منه.. حتى أنها بدأت تستشيره في بعض الانشغالات الطلابية وتحاول معرفة رأيه ومواقفه، بل وطلبت تدخله لحسم بعض الاستفزازات التي تتعرض لها مما جعله يتصرف بقسوة مع أحد أصدقائه، فهدده بجرأة غريبة وطالبه بالابتعاد عنها، ثم راجع نفسه واستدرك خطأه وقدم اعتذارا مشروطا باحترام الطالبة، وهو ما جعل صديقه سعد يفهم أن تمت علاقة ما غير معلنة فيتدخل لتخفيف حدة الاعتذار المشروط ويقول مازحا:

- هههه.. أمسكتك المصيدة يا خالد

لم ينف خالد ولم يثبت فهو لا يزال في حيرة من سلوكها اتجاهه، ولا يرى له حظا للظفر بكل هذا الجمال فهو الفقير البسيط المشغول بنفسه وهمومه، وظروفه أكبر من أي ارتباط عاطفي...

ولكن شيئا ما أثاره مزاح سعد. وبدأ خالد يدرك تصرفاته ويحللها.. كيف كان يحس بالارتياح حين يراها وكيف كانت تضيق قاعة الدرس وساحة الكلية في غيابها:

- فجرت المخبوء يا سعد وأدخلتني في متاهات الحيرة والقلق.. لو كان قلبي معي لأغلقته واتلفت المفتاح، ولكنك يا سعد كسرت الباب وتركتني مشرعا لرياح قد تمزق كل شيء.. وتأتي على ما لم تستطع الصراعات والهموم تحطيمه.. لا سبيل الآن إلا الصمود والتماسك أو على الأقل التظاهر بذلك حتى لا يقع المحظور..

لم تبق إلا أيام على العطلة الربيعية والدروس في أوجها، وكانت تستعد للسفر فسألته عن بعض الدروس بصوت خافت فيه من الرقة واللطافة والعذوبة ما لم يكن يتوقعه، فأحسّتْ بتأثره، وأصابها من الخجل ما كسا وجهها حمرة زادته توردا وابتهاجا.. تعثر في الكلام وهو يرحب بطلبها ويقدم الاستعداد لتوفير ما تطلبه من الدروس التي فاتتها أو التي ستُلقى أثناء سفرها. ودون تحديد موعد شكرته وانسحبت تمشي الهوينا وهي تعيد تجميع شعرها بين السبابة والإبهام بحركتها المتكررة القاتلة.. نسي أن يسألها عن اسمها ومدينتها فقد ذكرت انها

تقطن في الحي الجامعي وأنها ستحضر بعد عودتها من السفر لتحصل منه على الدروس التي فاتتها.

أي موقف هذا؟ أصبح خالد أخف وزنا وأرهف حسا، يحس بلحن جديد يسري في كل أجزاء ذاته.. كلماتها الخافتة تتكرر على مسامعه حتى لا وجود لصوت إلا صوتها يملأ عليه الدنيا، ووجهها المشرق يحاصره أنى التفت.. لم يعرف كيف خرج من الجامعة ولا كيف وجد نفسه في الحافلة.. لا شك أنه مر بحلقات للنقاش وسلم على بعض معارفه دون أن يشعر. يبدو أنه نسي صديقه سعد الذي كان ينتظره في المكتبة.. قد ينسى الآن العالم كله إلا بشاشة الوجه الجميل وسط الهالة الذهبية.

من أين سيبدأ؟ ما كان يتوقع هذا الانقلاب العاطفي وفي هذه اللحظة بالذات! سعيد إلى حد البكاء وشقي بواقعه وظروفه، فهو أفقر من الصرار في أيام الشتاء، وهمومه أثقل من الجبال.. لا يستطيع الحديث إليها ولا التعبير عن عواطفه.. ينزل من الحافلة وتنزل من عينيه دمعة ساخنة يتلقفها بكفه وينظر إلى الشارع من خلال بقايا الدمع في الرموش فتتداخل شخوص الناس بهياكل الأشجار واعمدة الكهرباء كتداخل الحزن والفرح في صدره:

- ماذا فعلت بي أيها الملاك المجهول؟ غرزت سهمك.. في صدري وابتلعتك ساحات الجامعة، مجهول الاسم ومجهول العنوان، من أسأل عنك؟ كيف أجدك ولم أضرب معك موعدا؟ أنا أسعد خلق الله وأتعسهم.. تحملت الصراع مع الفصائل والتنظيمات وكنت أقوى موقفا وأصلب عودا والآن انهار كل شيء، انهار جبل الثلج.. واستيقظ داخلك الضعف، ولجأت إلى البكاء، تداخل في أعماقك الفرح والحزن.. الشعور بالتحدي والإحساس بالإحباط.. الحيرة والقلق.. متى سيعود الملاك من السفر؟ عطلة فصل الربيع طويلة والزمن ثقيل وقاس لا يرحم، وجبال الهموم تزاحم بعضها وتشتد وطأة الليل.. الآن أدركت معاناة الشعراء مع الليل؛ كيف شدت نجوم ليل امرئ القيس بحبال إلى جبل يذبل، وكيف تباطأت كواكب ليل النابغة.. رمتني.. وعهدي بالنصال عديم.

ألقى كل الآلام خلفه وانشغل بالسهم الجديد مستحضرا كل اللحظات كل الكلمات كل الحركات.. يبني قصورا ويعيش نشوة ويستعد للقاء بعد عطلة الربيع، فكانت أطول وأغرب فترة عاشها؛ شوق وحنين.. انفعالات وآلام.. وقصائد تكتب.. ولحن صامت يَعزِف في الأعماق مقطوعات صامتة، ويعيد تشكيل شخصية خالد من جديد ليصبح أكثر تسامحا واشد اهتماما بتفاصيل الأشياء ودقائقها.. يعلو به الفرح

فتشتد رغبته للتحصيل الدراسي لينال القرب والحظوة أكثر، ويقتله ثقل الزمان وطول المسار وضيق الحال.

مرت العطلة وجاء باكرا إلى الكلية ومعه دروس السنة بأكملها، وكله انتظار أن يلقاها فيستعيد توازنه المفقود وراحته حين تلقاه ببشاشتها وهدوئها..

انتهت الحصة الأولى، وكانت المفاجأة حين أقبلت عليه فتاة محجبة في كامل حيائها ولطافتها:

- السلام عليكم

- وتلعثم خالد:

وعليكم السلام.. م م من...؟ شيء جميل ورائع هنيئا. ما كنت أتوقع منك هذا التحول السريع!

- شكرا جزيلا، لم يكن تحولا سريعا، فقد كنت مترددة.. والآن.. الحمد لله كل شيء تمام.. تمام.

كانت المفاجأة أقوى مما ينتظر.. فسلمها الدروس ونسي مرة أخرى أن يسألها عن اسمها ومدينتها لأنه أصبح أكثر ارتباكا وأشد انفعالا

والموقف يحتاج إلى ترتيب يتجاوز انفعالاته المنفلتة وعقلانيته الضائعة.

شكرته على جميل صنيعه وانصرفت في هدوء مع إحدى زميلاتها التي لاحظت اهتمام خالد وارتباكه لحظة اللقاء. بدا له ذلك واضحا حين رمقها وهي تبتسم وتقترب منهما لتبارك هي الأخرى التحول الجديد.

أعجب بهذا التحول، وازداد تعلقا، وتعمقت الآلام، وأصبح يعاني في صمت وينتظر لحظة المكاشفة بعد انتهاء الامتحانات فكتب عن حالته وصمته وقهره فكانت قصيدتيه "طيف مرجم" و "لحن الصمت" التي قدم فيهما وصفا دقيقا للواقعة وصفق لهما حسن وسعد:

نجمك يا قلبي ملفوف في خمار

كالورد الأحمر لم تنزع عنه الأكمام

مجهول الاسم ومجهول العنوان

وندى ينزل في اطمئنان

أيرافقك الرعب

وترافقك الأحزان

وتظل وحيدا تبحث عن عنوان

هل يكفيك العنوان

وقصيد الشعر المعسول الألحان

هل يسمعك النجم

هل ينبض منه القلب

أم أنك وحدك تأكلك الأحزان؟!

.....

وعلى عادة سعد وأسلوبه المرح علق على الحدث والقصيدة:

- (ما أبدع الشعراء أجود منها ولا ترك صديق صديقه ينتظر في المكتبة إلا من أجل العيون الساحرة.. سامحتك يا خالد فآهاتك تشفع لك..).

لم يجد عند حسن وسعد أي معلومة عنها، ولم يكلف نفسه بالبحث لمحدودية علاقاته مع الطالبات.. ولكن سعدا شغل قدراته وشطارته فكلف قريبته جليلة التي تتابع دراستها في نفس الكلية فجاءت بكل التفاصيل من داخل الحي الجامعي للطالبات، لكنها قررت التكتم حتى لا تصدم خالدا بالمعلومات غير المتوقعة وغير المفرحة.

عرف سعد كل شيء وبدأ يستدرج صديقه لتَقَبّل الوضع الجديد محاولا صرف اهتمامه عن الأمور العاطفية، فهي نزوات وعقبات في طريق التميز والتفوق.. وأن هذه التجربة الانفعالية قد تؤدي إلى انتكاسة في المسار الدراسي إذا تصرفنا معها أنها كل شيء، **فالحياة أكبر من قلب هائم وشعر يتدفق عاطفة وخيالا.**

أحس خالد أن في الأمر شيئا لا يفهم، فخطاب سعد تغير تماما وأصبح أكثر عقلانية بعيدا عن دعاباته ونكاته وأسلوبه المرح.. لا شك أنه يخبئ أمرا وأن قريبته جاءته بأخبار سيئة:

- أسلوبك تغير يا سعد.. غاب مرحك ونشاطك.. هل وصلتك أخبار لا تسر؟

- أخي خالد "مها" سافرت بعد أن أخذت منك الدروس.. (قاطعه خالد):

- "مها" الله، اسم جميل، وما الغريب في الأمر؟

- رد سعد محاولا التذكير بالقناعات:

- كل شيء قسمة ونصيب..

- فهم خالد ولكنه لم يستوعب الصدمة:

- كيف لم.. لم.. لم أفهم؟

- كرر سعد:

- كل شيء قسمة ونصيب..

- يعني..يع.. يعني.. تزوجت؟؟!

تابع سعد:

-تمت خطبتها في العطلة الربيعية..

تغير كل شيء؛ ماء كالمطر البارد ينزل على جسده الملتهب وصمت عميق يسود المكان رغم ضجيج الساحة الجامعية وقهقهات الطلبة وزفير الحافلات.. هذه المرة انحبس الريق والدمع والكلام.. انحبس الزمان.. وتوالت الصدمات:

- لك وحدك يا رب أشكو همومي.. أشكو نزول السيوف على جسدي الضعيف. منك العوض وعليك التكلان منك العوض.. منك العوض...

غاب خالد عن الجامعة أسبوعا كاملا في عزلة عن كل شيء إلا الكتب وبعض اللقاءات مع حسن الذي كان يستعد للسفر إلى أمريكا لدراسة الفلسفة والمنطق بعد خلاف فكري مع أحد أساتذته أدى إلى رسوبه وإقصائه.. وقد مكنته هذه العزلة من إعادة ترتيب أولوياته وتضميد جراحاته فاستعاد نشاطه وأدرك أن الحياة انتكاسات مستمرة ورغبات

تفتح باب الأمل فنصبح أشد تعلقا بها، لنحصل على انتكاسات جديدة في دائرة من الخيبة والسقوط المستمر، ولعبة لا تنتهي إلا بالسقطة الأخيرة.. أدرك أن الصمود والمواجهة هما السبيل الوحيد لبناء الشخصية والحفاظ عليها من الانهيار. وأن الحياة لا تقبل التوقف أو التراجع، ولا تستجيب لبكاء أو عاطفة.. الحياة مسار لا يقبل إلا التحدي والمغامرة.

مرت الامتحانات وكعادته حصل على النقطة الأولى بامتياز فأقبلت عليه "مَهَا" وهنأته وتمنت له التوفيق. وهنأها هو كذلك بالنجاح وبارك لها الزواج. وبدأ يستعيد حياته الطبيعية ويستفيق من آلام الصدمة، وتحول ما كان حبا إلى علاقة أخوية محترمة استمرت حتى نهاية المشوار الدراسي الجامعي الذي كان فيه خالد حريصا على التواصل الإيجابي مع كل الأطراف المتناقضة سياسيا وثقافيا في محاولة لتجاوز التنميط وتفعيل ثقافة التنوع المنعدمة في العلاقة بين الفصائل الطلابية، وحتى بين الأساتذة أنفسهم.

– 4 -

# الاختطاف

لم يكن الطاقم المعرفي للكلية والجامعة بعيدا عن الصراعات التي تجري بين الطلاب فأغلب الأساتذة هم في الأصل طلبة سابقون في الكلية حملوا معهم إلى مركز الأستاذية كل صراعاتهم الفصائلية السابقة، وأكثرهم ظل انتماؤه الإيديولوجي موجِّها لتكوينه المعرفي مما أنتج صراعات وتكتلات وانقسامات.. وتبين بوضوح أن المعرفة المكتسبة لم تغير في شيء السلوك الطلابي الفصائلي المبني على القمع والإقصاء وظل عنصرا فاعلا في مراكز أكاديمية الأصل فيها أن تكون فضاءً للتنوير والانفتاح والتنوع، ولكن البناء والتكوين النفسي والثقافي للطالب الفصائلي ما كان ليسمح بإنتاج مغاير، ففساد المدخلات يستحيل أن يؤدي إلى مخرجات جيدة وناضجة.. وما يحدث من وجود نماذج أستاذية راقية ومتميزة هو في الأغلب نابع من شخصية الأستاذ وتفاعله الذاتي بالنقد والتصحيح مع الثقافة المتاحة والصراعات الدائرة.

الغريب أن الطلبة يصنفون الأساتذة حسب توجهاتهم وطريقة تفكيرهم وانتماءاتهم السياسية.. وعادة ما تكون إجابات الطلبة في

الامتحانات متوافقة مع توجهات الأستاذ حتى لا يقع المحظور، فالطالب موزع بين المعرفة العالمة، وإيديولوجية الأستاذ الذي لا يتورع عن نقل صراعاته إلى طلبته، فيشركهم في إعادة إنتاج الحقد والكراهية والإقصاء بدل التواصل والانفتاح والتنوع، أو على الأقل أن يحتفظ بصراعاته لنفسه.

عاش خالد هذه الصراعات، وكان كثيرا ما يبتعد عن الصنف المؤدلج من الأساتذة.. فقد سمع قصصا مرعبة ومتنوعة عن سلوكات إقصائية لبعض أساتذة الكلية لمخالفيهم من الطلبة لا علاقة لها بالعلم والمعرفة وهي أقرب إلى الانتقام والقمع منها إلى السلوك الموضوعي الناضج.. ويبدو أن لكل طالب ما يكفي من الحكايات الغريبة عن هذا الوضع الذي أسهم في سقوط النموذج المعرفي، وتدني المستوى الأكاديمي، لتصبح الجامعة جيتوهات مغلقة يصادر فيها الوعي وتسودها عقلية الشيخ والمريد.

لا زال خالد يذكر مرارة صديقه حسن وامتعاضه حين ناقش أستاذه أثناء الحصة، فلم يتقبل الأستاذ ذلك، وبعد انتهاء الحصة انفرد به وقال في تحد:

-أنت أنصحك بتغيير الشعبة لن أسمح بوجودك معنا.

ونفذ وعيده فأقصاه في امتحانات آخر السنة. وهو ما دفع حسن للهجرة إلى أمريكا لدراسة الفلسفة في جو من الحرية وقبول الاختلاف فكان يراسل خالدا ويحدثه عن أجواء الحرية والديموقراطية السائدة في كل مرافق الحياة وكيف يتعامل الطلبة باحترام فيما بينهم رغم اختلاف الأعراق والديانات والأفكار بل أن الأساتذة يشرفون على أبحاث تخالف تفكيرهم ومنطقهم وتوجهاتهم لا يهمهم إلا علمية البحث وموضوعيته وكثيرا ما كانت الموضوعية سبيلا لتغيير الطالب أو الأستاذ أفكاره وتوجهاته.. لأن الحقائق نسبية والتكوين الأكاديمي هو السبيل الوحيد للاقتراب من الحقيقة والتفاعل معها.. أما في البلاد العربية فلا بد أن يدعم البحث –في كثير من الحالات- مواقف الأستاذ وأفكاره وأن يصفق الطالب لأيدلوجيته.. فالهدف هو صناعة أصنام فكرية وإنتاج نسخ باهتة تثقن المديح والإطراء.

حصل خالد على الإجازة بامتياز وأصبح مؤهلا لمتابعة الدراسات العليا فهيأ تقريرا عن مشروع البحث حول (النقد بين الجاحظ والجرجاني) وتواصل مع بعض الجامعات الأوروبية وتم قبول بحثه شريطة التسجيل خلال شهر أكتوبر، لكن أحداث تفجيرات باريس التي اتهم بها اللبناني جورج عبدالله فرضت قوانين جديدة على عملية تسجيل الطلبة العرب وأصبح الأمر مكلفا ماديا فليس بإمكانه توفير

المبلغ الكافي لعملية التسجيل القبلي بتأشيرة مدتها شهر ثم الرجوع إلى المغرب في انتظار رد الجامعة للحصول على تأشيرة مفتوحة.. لذلك قرر متابعة دراساته العليا في المغرب فسحب "طلب تحويل المنحة إلى الخارج" وأتم التسجيل في قسم الدراسات العليا بكلية الآداب بفاس.

ونتيجة للصراع بين أساتذة الشعبة وانقسامهم بين إسلاميين ويساريين حاول عميد الكلية إرضاء الطرفين، فقسم التخصص إلى قسمين، وقسم الطلبة دون استشارتهم بين التخصصين، فحدثت الهجرة من القسم الثاني إلى القسم الأول. وتدخلت الإدارة خوفا من الهروب الجماعي ومنعت تحويل التسجيل، وأصبح حوالي اثنا عشر طالبا مختطفين ومحتجزين في القسم الثاني. وجد خالد نفسه مضطرا للتعايش مع وضع الاختطاف فليس هناك طريق آخر غير ركوب الأسنة والتعامل مع وضع يسيطر عليه أستاذ مؤدلج حتى النخاع، عنيف شديد في خصومته، عايش أجواء الحلقات والتظاهرات والصراعات الفصائلية ولم يستطع الخروج من جلباب العقلية الطلابية إلى النضج المعرفي للأستاذ الجامعي، وبقي وفيا للصراعات الإيديولوجية، كما يتضح ذلك فيما دونه من سيرته فلم يترك صديقا، ولا حتى من عرفه ليوم وليلة، إلا ونال منه سخرية وشتيمة متباهيا بالخمرة والجنس بألفاظ ساقطة سوقية يضع لها في الهوامش مقابلا بالفصحى ليكون

الاستفزاز أكثر وجمهور القراء أوسع.. ألفاظ ساقطة وصلت إلى حد السخرية من العقائد الدينية والذات الإلهية. تظهر أنه كان ينوي إحداث ضجة وإثارة انفعالات.. فيستفز الخصوم للرد والجرجرة في المحاكم أو تلقي تهديدات بالقتل من تيارات دينية متطرفة.. ويصبح حديث الجرائد والمجلات والقنوات الفضائية لكن خصومه كانوا أذكى وأعقل منه فقتلوه بالسكوت عنه.. فسقط الكاتب والكتاب رغم محاولات الضجيج التي أثارها هو شخصيا في ندوات نظمها أصدقاؤه حول سيرته.. فكان كشارب خمر ينفخ في قربة مثقوبة. وكان من نكد أيامه أن المتطرفين لا يقرؤون ما ينشر ويكتفون بما يسمعون من شيوخهم لينفعلوا ويهددوا فتكبر الفقاعة.. ويظهر وسطها الدكتور العرام منتفشا في الجرائد والفضائيات.. يستنكر الإرهاب ويتحدث عن عقلانيته الزائفة في التعامل مع خصومه الظلاميين، ولكن الظلام طواه مع أشواقه وخيالاته.

لم يكن خالد مرتاحا لعلاقته مع الأستاذ ولا لوضعه داخل هذا القسم من التخصص. ولم يكن الأستاذ يعرف شيئا عن صراعات خالد ومواقفه وعلاقاته في الساحة الجامعية لذلك قربه منه حين أدرك نباهته ونضجه المعرفي فكان يأخذه معه إلى داره محاولا استقطابه وتوظيفه في صراعه مع أساتذة القسم الأول؛ فحدثه كثيرا عن

صراعاته مع الرجعية ونقاشاته داخل الشعبة التي يجب تخليصها من سيطرة الأصوليين.. وكان خالد يصغي لهذه الآراء والمواقف التي كان يدرجها الأستاذ حتى داخل حصة الدرس دون تعليق.. وما كان يثير مخاوف خالد أكثر هو إقحام الدكتور العرام لكتاب فرج فودة الحقيقة الغائبة في حصة النقد منوها بشجاعة فودة ومواقفه، حتى خشي خالد أن يصبح هذا الكتاب مرجعا نقديا معتمدا في التخصص.. كان يصغي وهو يهز رأسه مبديا ضحكة صفراء يفهم منها الدكتور العرام موافقة وتأييدا فتزداد ثقته بآرائه التي يتعمد إسقاطها على النقاد والبلاغيين القدامى فيفرغهم من خلفياتهم العقدية والدينية في محاولة لتصفية حساباته مع الأصولية قديما وحديثا.

ظل خالد يساير آراء الأستاذ لا يناقشه ولا يخالفه وأصبح يمارس التقية رغما عنه، وتحول إلى طالب يساري معتدل حتى وثق منه الأستاذ وقربه إليه أكثر، وفاخر به أمام الأساتذة مما أدهش أحدهم حين سلم عليه خالد في الممر المؤدي إلى الشعبة:

- أهلا أستاذي كيف حالك؟

- الحمد لله.. قل لي كيف أنت مع الدراسات العليا؟

- .. أتابع في القسم الثاني المستحدث..

- ممتاز.. معكم طالب اسمه خالد يفتخر به أستاذكم كثيرا ويتحدى به كل طلبة القسم الأول أن يقفوا أمامه معرفيا..

- ألا تذكر اسمي أستاذي؟ أنا خالد

فوجئ الأستاذ لأنه كان يعرف خالدا فقط بصورته وشخصه، والآن اكتملت عنده المعلومة واندهش:

- أنت.. أنت.. أنت خالد؟! غير معقول.. هل يعرفك؟؟

- أرجوك أستاذي اكتم عني.

فقال الأستاذ في حدة: - احذر.. احذر..

الجميع يعرف مزاجية الدكتور العرام وسرعته في اتخاذ القرارات وبطشه بكل من خالفه الرأي.. لذلك ظل خالد يعيش بين مخافة ورجاء يزيد من تكتمه في علاقاته مع الأساتذة والطلبة المقربين منه.. سنة كاملة قضاها خالد مختطَفا، يعيش بغير طبيعته وعلى غير سجيته.. يطحنه الصراع بين التقية والمبادئ، بين حبه للفكر والحرية، والشخصية المقموعة المجبرة على الصمت بل التأييد لفكر قمعي إيديولوجي متخلف حتى النخاع لا يقبل بغير منظومة الشيخ والمريد رغم ادعاء العقلانية والحداثة.. وكثيرا ما قارن بين الأجواء التي يعيشها

في الجامعة، وما يصله عن أجواء الجامعات الغربية في رسائل صديقه حسن من أمريكا. أجواء من الحرية والانضباط والمسؤولية والاحترام بعيدا عن التشنجات والصراعات التي نغرق فيها ونورثها لبعضنا فننتج -وسط هذه المعارك- جيلا يحمل نفس الضغائن ويعيد إنتاج خارطة الشؤم التي حذر منها زهير قبل خمسة عشر قرنا.. دائرة مغلقة لعقلية التخلف تسودها علاقة عمودية تعتمد التبعية والاستسلام في مقابل العلاقة الأفقية السائدة في الجامعات الغربية حيث الاستقلالية والتمايز والوضوح والاختلاف. ففي إحدى الرسائل قرأ خالد عن حادثة غريبة لصديقه حميد مع أستاذه المشرف على بحثه للدكتوراه حين زاره في منزله الطلابي فوجد عنده فانوسا من الصناعة التقليدية المغربية، فطلبه هدية منه، فاعتذر الطالب بحجة أنه تذكار من البلد لا يريد أن يفرط فيه.. تفهم الأستاذ الوضع ولم يبد انفعالا أو سخطا. مضت الأيام وكان يوم مناقشة الأطروحة فنال درجة الامتياز، وهنأه أستاذه مشيدا بالبحث وامتياز الطالب وقدراته ومستواه العلمي.. وعمد الطالب إلى إخراج الفانوس وتقديمه هدية لأستاذه الذي استغرب قائلا:

-ألم تقل لي إنه تذكار يربطك عاطفيا بالبلد؟

فرد الطالب بالجرأة التي تعلمها في المحيط الجامعي والعلاقات العامة في البلد المضيف:

- يوم طلبته مني كنت طالبا وخشيت أن يكون رشوة، والآن نحن أصدقاء فأرجو أن تقبله مني تذكارا وهدية.

دارت الدنيا بخالد، ماذا لو كان الأستاذ عربيا؟ بدون نقاش كان سيُلغى الإشراف ويُنبذ الطالب ويسحب الموضوع لأنه مستهلك وغير متوافق مع المناهج العلمية.. وماذا لو كان صديقه حميد في جامعة داخل بلده؟ كان عليه أن يشتري فانوسا للأستاذ وفانوسا لزوجة الأستاذ وآخر لابن وابنة الأستاذ وأن يدبج مع الهدية رسالة خنوع وولاء تشيد بمكانة الأستاذ وأخلاقه وطيبوبته وصبره وكل مصطلحات الزفت الأسود من قاموس القهر والتبعية:

- ما الفرق بيننا وبينهم لماذا ارتقوا رغم التنوع والاختلاف؟ ولماذا نزلنا إلى الحضيض؟ نحرص على إنتاج نسخ باهتة لا تتقن إلا المديح والولاء يا أمة ضحكت من جهلها الأمم.

لا زال خالد يذكر نماذج من سلوكات التخلف حين حاول أستاذه توظيفه في الصراع ضد خصومه إلا أنه بحكم خبرته في التعامل مع هذه المواقف عرف كيف يتجاوز الشر ويأسف له، فاعتذر بأنه لا يريد

الاصطدام بأصدقائه المناصرين لأساتذة القسم الأول، فتفهم الأستاذ موقف خالد ولم يفتح معه الموضوع مرة أخرى حرصا على ألا يفقد طالبه المتميز. ولكنه استمر في نقل أجواء الصراعات داخل الشعبة إلى قاعة الدرس في محاولة ذكية لاستقطاب الطلبة ونشر العداء اتجاه الأساتذة المخالفين وخاصة رئيس الشعبة الذي مل نقط نظام الدكتور العرام أثناء المناقشات، فرد عليه بالأسلوب الذي يتقنه ويفهمه.

انتهت الامتحانات وقبل الإعلان عن النتائج خرج الأستاذ ليهنئ خالدا بحصوله على الرتبة الأولى ونجاحه بامتياز.. وتم الإعلان الرسمي عن لائحة الناجحين عبر الواجهة الزجاجية لمقر الشعبة، ولكن خالدا ظل متسترا عن علاقاته ومواقفه، مختفيا عن الأنظار في انتظار سحب الوثيقة الرسمية للشهادة، فقد علمته الأحداث أن كل شيء قابل للتبديل والتغيير وأن الإدارة التي وافقت على تقسيم التخصص الواحد بعد أن انتهى تسجيل الطلبة قادرة في أية لحظة على سحب النتائج وتغييرها.

وأخيرا تم سحب الشهادة من مكتب الامتحانات، وتنفس خالد الصعداء وتحرر من الاختطاف والقمع واسترد شخصيته المغيبة.. ما أروع أن يعيش الانسان حرا بعيدا عن سلطة المشيخة المعرفية والقمع

الأيديولوجي باسم الحداثة والعقلانية!! سنة كاملة من الاختطاف والرضوخ والتزييف الفكري.. لا نقاش ولا اختلاف.. استنساخ كامل.. ومصادرة للفكر المخالف.. معرفة محرفة ومشوهة، ونتف من اللسانيات والبلاغة الغربية، وقراءة أيديولوجية مزاجية للتراث النقدي، وخلط واضح بين الفكر النقدي والبلاغي صورة مشوهة عن القضايا النقدية وخلفياتها.. خليط غير متجانس مدعوم بإيديولوجيا "الحقيقة الغائبة" تم تقديمه للطلبة بوصفه معرفة علمية عقلانية؟! مما كان يثير اشمئزاز خالد ويشعره بالغثيان من هذه العُرْمَة المعرفية للدكتور العرام، دون أن يستطيع التصحيح والتقويم أو حتى النقاش الهادئ. وظل مقموعا صامتا يغالب انفعالاته وجرأته ومواقفه التي عرف بها وسط الكلية، ولم يكن يُسَرِّي عنه إلا الاندماج في حصص تخصصات أخرى مع أساتذة يحترم فيهم النزاهة والمعرفة العلمية العميقة والتجرد من المزاجية والذاتية في التعامل مع الموضوع والمتلقي، دون تصنيف للطلبة أو قمعهم ومصادرة آراءهم.. لذلك قرر تسجيل أطروحته للدكتوراه مع أستاذ يحترم فيه نضجه وموضوعيته ليتخلص من القمع والقهر. ما أروع أن تتحرر.. ما أروع أن تتحرر.. ما أروع أن تكون حرا.

ورغم ذلك حاول خالد تطبيع العلاقة لتجاوز الأزمة والتعامل بوضوح واحترام واستغل لحظة تقابله مع الأستاذ في مدخل الكلية فتوقف للسلام عليه، إلا أنه تجاوزه دون ان يعيره اهتماما.. ففهم خالد عمق الجرح، وقوة الصدمة، ومدى إحساس الدكتور العرام بالشماتة حين تخلى عنه طالبه المتميز. ظهر ذلك في كلمته أمام فوج الطلبة الجدد حين ذكر الأستاذ الواقعة واتهم خالدا بالنفاق، ثم نزع نظارته ومسح دمعة غلبته أثناء الحديث. وتحركت فيه مزاجيته فعمل بمساعدة بعض المتملقين من الطلبة على تصنيف طلبة الفوج الجديد. وتم بالفعل في آخر السنة إقصاء طالب رغم انضباطه وتميزه.

أدرك خالد أزمة الموقف وبدأ يتعامل بحذر شديد مع كل الاحتمالات الواقعية والمتخيلة التي يمكن أن تصدر عن الأستاذ. فقد التحق بالمدرسة العليا للأساتذة وكتم الأمر عن محيطه الطلابي مخافة تواصل الدكتور العرام مع بعض معارفه للتأثير على نتائج التخرج من المدرسة العليا آخر السنة. قد تكون هذه التوقعات مبالغا فيها وأبعد ما تكون عن الواقع وأقرب إلى التوهم والخيال.. ولكن من يعرف الدكتور العرام وصراعاته وانفعالاته لا يستبعد أي شيء، والتجربة منطلق الحكم وسبيل التوقع؛ فقد استعطفت إحدى الطالبات خالدا مساعدتها في تجميع بحثها التربوي فضرب معها موعدا في نادي أسرة

التربية والتعليم لمناقشة الموضوع وترتيب العمل. وبينما هما منشغلان وقف النادل عليهما وطالبهما ببطاقة العضوية أو الانسحاب، لأن الاستفادة من النادي ومرافقه مخصصة للمنخرطين فقط. مد خالد بصره ليحتج على النادل بوجود طلبة كثر.. فشاهد في الجهة المقابلة الدكتور العرام مركزا على الحدث والموقف في انتظار عملية الطرد.. وعلم أن النادل مدفوع وموجه إلى هدف مقصود للانتقام والتشفي.. علم أن المياه التي تجري آسنة وأن جامعاتنا التي تحتضن هذه النماذج لن تنتج إلا أحقادا وكراهية ومعرفة مبتورة متخلفة..

قابل خالد بين صورة الجامعة كما يتابعها في البرامج الوثائقية والجرائد والمجلات والرسائل التي تصله من صديقه حسن في أمريكا وطلبة آخرين في أوروبا، ووضع الجامعات العربية، أو على الأقل ما عايشه شخصيا داخل بلده حيث الصراعات الطلابية التي يضيق عنها الفكر وتحسم بالهراوات والسيوف والدماء والضحايا والمعطوبين.. فيشيع جو من القمع وسيادة الفتوات الفصائلية التي نشأت أصلا لمحاربة الاستبداد فتحولت إلى مافيات مستبدة بامتياز لا علاقة لها بالمعرفة العلمية والفضاء الثقافي والتكوين الأكاديمي. جهل مركب وعقليات متخلفة تزيد الوضع تأزما واحتقانا وتنتج الشؤم والحقد والكراهية والاستبداد والتباهي بالعقلانية والمعرفة العلمية.. وضع امتد فيه

الصراع إلى التحصيل المعرفي وساد التوجس والتوتر وسيطرت العلاقة العمودية المبنية على التبعية ومصادرة الرأي الحر والقمع الفكري.

خرج خالد من هذه المرحلة بحصيلة معرفية واجتماعية وسياسية يطبعها التناقض، ويؤطرها وضع عام لا فرق فيه بين مثقف وأمي، فالعنف والإقصاء والتعالم سمة مشتركة بين الجميع. بين النظام والفصائل.. بين الطلبة.. بين الأساتذة.. في الحرم الجامعي وفي قاعات الدرس.. ولم يجد العزاء إلا في نماذج راقية من الأساتذة الذين اقترب منهم وتواصل معهم بحب، فتعلم منهم الصبر على العلم والمعرفة والتعالي عن الأوضاع المأزومة ومنظري الأزمات.. تعلم التعالي عن السقوط في اللعبة المشؤومة لاستنساخ القهر والتبعية والتسلط والإقصاء.

– 5 -

# وبدأ المشوار

أمضى خالد سنة كاملة في المدرسة العليا للأساتذة وثم تعيينه بعيدا عن مدينة فاس مسقط رأسه، فكانت النقلة بعيدة والتحول ولادة ثانية.. فبعد اليتم والفقر، والتسلط والقهر، والانكسار العاطفي، والصراعات والقمع، والنجاح والتفوق.. بعد كل هذه السلسلة المعقدة التي أسهمت في نضج الشخصية، واكتمال الرجولة، لم تبق إلا اللحظة الفارقة ليستقل عن مآسيه وهمومه ولينفتح على عالم جديد لا يعلم ما ينتظره فيه.

تتجه الحافلة صوب أكادير ويبدأ نزول الظلام وشيئا فشيئا تختفي أضواء مدينة فاس، وتزداد سرعة الحافلة، ومع كل لحظة يودع خالد تاريخا تختفي فيه الوجوه الطيبة سعد وجليلة ومها وحسن.. آه من حسن، ذلك الوجه الطيب.. كم حمل من آلام وتحمل من أحزان.. كل حزن لا تكفيه أنهار من الدموع ولا تنسيه تغيرات الزمن. ومع ذلك لا تفارق البشاشة وجهه الجميل.. كان أمل أمه. وكان أمل أسرته. وكان أمل أمته. كان خالد يحسب أن أحزانه منتهى الحزن حتى عرف أحزان حسن فاستصغر آلامه واحتقر دمعه. لم تكن آلامه لتحجزه عن هدفه

فقد حمل هموم الأمة كلها وسار يضرب في الآفاق عله يجد مسلكا لإيقاف التردي والانهيار، سار بعيدا وقضى شهيدا.

وتختفي الحافلة في الظلام ومعها تختفي لحظات من العنف والصراع والقهر والتسلط.. فينشرح الصدر تارة ويضيق أخرى، وتغلبه الذكريات فيتوه في دروب فاس القديمة يستذكر أياما دافئة قلقة، أيام شغفه بالمجهول وبحثه عن سر الكون حين كان صغيرا يجوب دروب المدينة العتيقة، ويقرأ لأنيس منصور عن الأطباق الطائرة وسكان الكواكب "الذين هبطوا من السماء" والذين عادوا إليها، فانفتح أمامه باب كبير من الخيال جره لقراءة "أشباح وأرواح" والدخول في عالم لذيذ تبادل فيه المعلومات مع مجموعة من زملائه الذين كونوا مجموعة لاستحضار الأرواح عبر طاولة مستديرة رسمت عليها حروف الأبجدية ووضع وسطها كأس مقلوب.. فشاع خبر المجموعة وبدأ النقاش وحب الاستطلاع يجلب عناصر جديدة وخبرات متنوعة تهتم بالتنويم المغناطيسي فاختلطت الاهتمامات وتنوعت التحليلات للظواهر النفسية والكونية، ودخل على الخط مجموعة من طلبة القرويين المنشغلين بعالم السحر والبحث عن الكنوز ومعهم تعرف خالد على كتب أحمد البوني "شمس المعارف الكبرى" و "منبع أصول الحكمة" وكتب الطوخي الفلكي والكثير من المخطوطات السرية التي

كانت تباع بأسعار خيالية للمستشرقين الأنجليز خاصة. حتى أن خالدا لا ينسى أحد هؤلاء المستشرقين حين جاء يبحث عن مخطوطات السحر وعلم الجدول فأخرج له أحد الباعة مخطوطا في علم الصرف مليئا بجداول الميزان الصرفي والاشتقاق وأزمنة تصريف الأفعال..، فتحه التاجر بسرعة ثم أغلقه وأخفاه لأنه بضاعة ممنوعة.. ودون نقاش طلب المستشرق لفَّ المخطوطة في كيس وأدى ثمن سذاجته غاليا وحمل المخطوطة وانصرف.

تداخلت المجموعة التقليدية من طلبة القرويين مع المجموعة العصرية من تلاميذ المدارس وجمعهم عالم مجهول فيه من الغرائب ما يتجاوز عالم ألف ليلة وليلة.. كما جمعهم الفقر والتطلع للثراء المفاجئ حين كان يدور الحديث عن الكنوز وعالم الجن المكلف بحراستها، وطريقة ضبطها واستخراجها، وكان ضمن المجموعة من يدعي قدرته على التحكم في حراس الكنوز، فلديه طلسم يكتبه في يده ويغلقها ثم يقرأ تعويذة سرية فإذا فتح يده أمام أي شيء يتوقف فورا ولا يستطيع الحراك حتى لو كانت طائرة في السماء.. وكان من المصادفات بعد أيام أن وردت الأخبار بسقوط طائرة، فأسر إلى خالد أنه هو من استخدم الطلسم ضد الطائرة. فلقبه خالد استهزاء بِـ"مسقط الطائرات".

تحولت المجموعة إلى البحث عن مواقع الكنوز لاستخراجها، واستعانوا بحارس مقبرة سابق ادعى معرفته ببعض الأماكن التي زارها فقهاء من جهة سوس فصعب عليهم التعامل معها وتركوها، فتدخل "مسقط الطائرات" ليؤكد معرفته الجيدة بالمكان والجن الذين يحرسونه وان تحت المصلى المطل على مدينة فاس الجنوبية مدينة كبيرة يخترقها واد كبير من الزئبق وبجانب الوادي توجد قبة بيضاء من بلور مضيء داخلها طنجرة كبيرة مليئة بالمجوهرات والذهب مرصودة على واحد من سكان فاس.. ومن حاول سرقتها يقذفه الجن في وادي الزئبق.. وأكد مسقط الطائرات من خلال ما أخبره به بعض خدامه من الجن أن واحدا من المجموعة لا يعرفه بالضبط هو صاحب هذا الكنز.

انفتحت شهية الجميع، رغم أن مسقط الطائرات لم يكن محط ثقة، فالطمع والحاجة أم الصدق، وقرروا التواعد بينهم على اقتسام الكنز دون أن ينفرد به صاحبه المرصود عليه.. وبدأ التخطيط والتفكير في كيفية حمل الطنجرة، وأين سيتم إخفاؤها، وكيفية بيع الذهب والجواهر الثمينة التي يكفي ثمن الواحدة منها لميزانية دولة بأكملها. وتمر الأيام وتحصل المجموعة على معلومات عن بعض تجار الكنوز المستقرين في مدينة طنجة ويبدأ التخطيط لفتح مدينة الكنز بإرشاد من حارس المقبرة وتوجيه من مسقط الطائرات. وقامت المجموعة

بزيارة مدخل المدينة السحرية الواقع تحت المصلى قرب مقبرة الزموريين.. وتم تحديد الموعد، وخرجت المجموعة ليلا للاستطلاع مسلحة بالسكاكين والمصابيح للدفاع عن نفسها وحماية الكنز الذي تكلف والد أحد أفراد المجموعة بنقله في سيارة خاصة.. وكانت المفاجأة عندما وجدوا أثرا للحفر في المكان، ففسر البعض أن ذلك من عمل بعض فقهاء جهة سوس الذين عادوا بعد غيبتهم الطويلة عن المكان.

رجعت المجموعة لاستشارة مسقط الطائرات حول المصيبة التي أتت على أحلامهم في الثروة والثراء وكلفت بعض عناصر المجموعة ومنهم خالد سنة كاملة من حياتهم الدراسية.. فلم يجدوا المسقط فقد غاب أياما عن المدينة، حتى فسر غيابه بعثوره على الكنز وانفراده به. وحين عودته لوحظ تغير في ملبسه وحالته مما زاد من شك المجموعة في أمره. وبدأ البعض يخطط لتتبعه والهجوم على داره.. وفي اجتماع حضره المسقط أكد أنه زار المكان بطلاسمه وعزائمه وحين فتح الباب وجد كلبا كبيرا أسود اللون يهم بالانقضاض عليه فأعاد بسرعة غلق الباب.. ولولا حراسه من الجن لأصبح في خبر كان.. وفسر غيابه بأن أحد حراس الكنز قذف به بعيدا إلى الصحراء جنوب البلاد.. ولولا المحسنين الذين أكرموه لما استطاع العودة إلى فاس.

قصة غريبة لازال يذكرها خالد ويضحك من سذاجة المجموعة التي روجت حكايات عجائبية عن "مسقط الطائرات" حتى تسرب خبر الكنز لبعض تجار المدينة فتواصلوا معه في سرية ليدعموه بكل ما يطلب لمشاركتهم في العملية.. فاستغل المسقط سذاجة الجميع وحصل من المجموعة على الدعاية ومن التجار على الدعم السخي لشراء البخور وتأمين المكان. ولم يحصل على الثراء إلا مسقط الطائرات الذي حضر فقط لتبرئة ذمته وأخذ متاعه من المدينة. ثم اختفى بالمال الذي حصل عليه من التجار ولم يظهر له أثر بعد ذلك، تاركا خلفه ضحايا من مختلف طبقات المجتمع كان يعدهم بتشغيل بركته وقدراته الخارقة لتحقيق رغباتهم في الزواج والحمل والانتقام والعمل.. بل وحتى النجاح في البكالوريا كما حدث مع أحد المعيدين بالإعدادية التي كان يدرس بها خالد، طمعا في الترقية الداخلية بواسطة الشهادة.

تعلم خالد الدرس وهو صغير وفهم أن الحياة لعبة يُوظف فيها السّذج لمصلحة الأذكياء. وتذكر كلام مسقط الطائرات عن الجن الذي قذف به من وسط البلاد إلى جنوبها.. أليست نفس الحكاية تتكرر مع خالد بأسلوب أكثر واقعية حين وجد نفسه متجها في الحافلة من فاس إلى الجنوب الغربي من الوطن.. أي عفريت هذا الذي قذف به بعيدا عن مرتع طفولته وشبابه إلى بلد لا يعرف عن أهله إلا الاشتغال

بالتجارة والتنقيب عن الكنوز؟! أي عفريت هذا.. وهل سيجد في هذا البلد الإحسان الذي وجده مسقط الطائرات في أهل الصحراء فأكرموه وأعادوه إلى بلده!! أسئلة كثيرة توحي بها الأحداث فيتقابل الخيال مع الواقع وتنضج الأماني تارة فتزهر الطريق، ثم تخبو فيرتجف القلب من هول عذب وعذاب الذكريات.. من هول الجراح والآهات..

انتُشل من ذكرياته على صوت عبدالحليم حافظ قويا مدويا داخل الحافلة وهي تخرج من مدينة إفران لتغوص من جديد في ظلمة الطريق باتجاه مدينة أزرو:

- موعود معايا بالعذاب.. موعود يا قلبي

موعود ودايماً بالجراح موعود يا قلبي
ولا بتهدا .. ولا بترتاح في يوم يا قلبي
وعمرك ما شـفت معايا فرح..

كل مرة ترجع المشـوار بجرح
والنهار دة جاي تقول انسى الآهات..

وأمانة يا دنيا أمانة.. تاخدينا للفرحة أمانة
وتخلي الحزن بعيد عنا..

<<<<<<<<<>>>>>>>>>

كلمات لها وقع قوي في مسار الرحلة وسجل الذكريات المفرح المؤلم، والمتأرجح بين الصراع والرغبة في التحدي ومواجهة الإقصاء، وتوالي الجراح، حتى أصبح العذاب جزءًا من المشوار (والنهار دة جاي تقول انسى الآهات) فلعلها رحلة التحول والتجدد، والبعد عن الآلام، (وأمانة يا دنيا أمانة.. تاخدينا للفرحة أمانة.. وتخلي الحزن بعيد عنا..).

وسارت الحافلة في منعرجات الأطس حتى شارفت مدخل مدينة "خنيفرة" فاستيقظ خالد من إغفاءة نوم خفيف ليلاحظ أن أضواء المدينة بدأت تقترب، ومساعد سائق الحافلة يشعل الأضواء الداخلية، وينبه إلى وقفة قصيرة لتناول العشاء. فأخرج خالد ما معه من الأكل الذي تزود به من فاس تجنبا للأسعار الملتهبة في المحطات الطرقية. ترك زاده على طاولة المقهى وذهب ليغسل يديه ووجهه فعاد ليجد قطط المحطة قد اشتمت رائحة اللحم وتسابقت للوليمة فمزقت الكيس واقتسمت العشاء.. فصاح به السائق ضاحكا:

- لا عليك لا عليك. تعال تتعشى معنا

اعتذر خالد ولكن السائق أصر فشكره خالد وقال:

- لم أكن أتوقع وجود القطط في مقهى المحطة

- ضحك السائق:

- يبدو أنك مسافر جديد. يجب أن تتوقع كل شيء وأن تحسب حساباتك حتى لا تخطف أنت شخصيا..

حكمة سائق، يجوب الوطن من شماله إلى جنوبه، علمته الحياة الحيطة والحذر ورغم ذلك فهو يتصرف بطيبوبة أهل البلد وكرم الرجال..

فأجاب خالد بأدب:

- فأل خير إن شاء الله. وحكمة أتعلمها منك سيدي

وتذكر كل شيء اختطف منه في هذه الحياة، وكيف جاء هذا الحدث بالضبط في هذه اللحظة الفارقة، لتتراكم المشاهد ويمر شريط الذكريات في مخيلته مختصرا وسريعا.. ينذره ويحذره من الماضي وآلامه.. فالحياة قسمة ونصيب.. وصبر على المصاب.

وأثناء العشاء تعرف السائق على خالد ووجهته.. فحدثه عن منطقة سوس وطيبوبة أهلها وأرشده إلى بعض معارفه هناك في مدينة تيزنيت وخاصة صاحب الفندق القريب من المحطة..

وسارت الحافلة من جديد، وانطفأت المصابيح الداخلية، وغابت الأضواء، ولم تبق إلا أشجار جبال الأطلس تبدو من النافذة على ضوء القمر الخافت من خلف سحب شهر شتنبر، تبدو كأشباح وهي تسير في تراجع سريع إلى الخلف تسحب معها زمنا مضى مثقلا بكل المتناقضات.. وفجأة انتبه خالد من تتبعه لحركة الأشجار في الليل المعتم على صوت عبدالحليم حافظ يدوي من جديد داخل الحافلة ببقية أغنية موعود:

- وابتدا ابتدا ابتدا المشوار.. وآه يا خوفي من آخر المشوار جنه ولا نار؟ اه يا عيني.. رايح وانا محتار آه يا خوفي

والقمر طلع.. شوف بقينا فين يا قلبي

.. والسما بتبكي علينا والناي الحزين

حتى نجوم ليالينا والقمر غايبين

وتاني تاني .. راجعين أنا وأنت تاني..

للنار والعذاب من تاني.. راجعين للحيرة تاني..

هايمين.. ونجري ورا الأماني..

وتتبع كلمات الأغنية.. وهي تصف الحالة واللحظة بكل تفاصيلها وكأنها موجهة إليه وحده دون بقية المسافرين، ولربما كل مسافر يفهم منها مشواره الخاص فلا أحد يخلو من عذابات وصراعات في هذه الحياة، فمن باك على محبوب إلى مشغول بحالٍ لا يأبه معه إلى بكاء محزون أو غناء مطرب.

"ابتدا المشوار" بالانفصال عن الأسرة والبلد والصراعات الحزبية والنقاشات الفكرية والمثابرة والتحصيل وأغلق معه بابُ زمن جميل قاتم.. رائع وحزين.. ورغم ذلك مازال خالد لم ينفصل عن وعيه الطلابي، وصدمته العاطفية، ومشاكله الأسرية، مما سينعكس على الكثير من مواقفه وقراراته بل وحتى على علاقاته في مدينة المشوار حيث قذفته أقدار تختلف تماما عن أقدار "مسقط الطائرات" أقدار تضيف إلى التجربة نضجا ووعيا وجرأة وتصنع شخصية جديدة، وتتجاوز الوعي الساذج عن سوس وأهلها.. أقدار تسير نحوها الحافلة تخترق الظلام في طريق طويل ظل معه خالد يتذكر ويمحو، وهو يردد مقاطع من أغنية "موعود":

رايح وانا محتار آه يا خوفي.. .. شوف بقينا فين يا قلبي

راجعين أنا وأنت تاني.. .. راجعين للحيرة تاني..

هايمين.. ونجري ورا الأماني..

وأمانة يا دنيا أمانة.. تاخذينا للفرحة أمانة

وتخلي الحزن بعيد عنا.. وتخلي الحزن بعيد عنا..

# المسار

– 1 -

# سوس العالمة

حوالي السابعة صباحا نزل خالد في مدينة أكادير عاصمة سوس. فحمل حقيبته وأخذ فطوره في مقهى بحي "تالبرجت"، ثم توجه إلى المحطة الطرقية لمدينة إنزكان، وحجز مقعده في الحافلة المتوجهة إلى تيزنيت. وفي انتظار موعد الانطلاق قام بجولة سريعة في السوق المجاور للمحطة.. لم يجد فيها شيئا مختلفا عن بقية الأسواق التي يعرفها سوى اللهجة المحلية والموسيقى السوسية الرقيقة والسريعة الإيقاع مع غناء لا يفهم منه شيئا سوى ذلك التناسق الرائع للموسيقى مع الأصوات.. فبدأ يشعر بالاختلاف والتمايز الشكلي في كلام الناس ولباسهم، عما عهده في الشمال، فأغلب الرجال يرتدون قمصانا زرقاء مفتوحة الجيوب على الصدور، وموشاة بطرز يحيط بفتحة القميص من العنق إلى الصدر، ويضيف بعضهم عمامة سوداء يلوي جانبا منها قناعا على وجهه، ولا تختلف أشكال أحذيتهم إلا ناذرا فأكثرهم ينتعل البلغة السوسية المعروفة ب"إدوكان"، فيما ينتعل آخرون مشاية بلاستيكية عادية. أما نساؤهم فأغلبهن يرتدين لحافا أسود يسمى الحايك، يغطي سائر الجسد إلا عينا واحدة مظللة بامتداد اللحاف فوق الجبهة

وانسداده بقبضة اليد من الداخل فوق الأنف والفم لتنزل بقيته مطرزة وموشاة بزخارف في الوسط والأطراف.. فيما تطرح أخريات الحايك على الرأس والكتفين ليظهر لباسٌ ملون موشى بطرز متعددة الألوان ومحاطا بعقد من عقيق اللبان وآخر من نقود فضية قديمة. وأغلبهن تتزين بدمالج فضية ثقيلة، وقطع معدنية صغيرة ومستديرة لامعة تسمى "المُوزُونْ" تنزل من طرحة الرأس متلألئة فوق الجبهة.. وينتعلن شبشبا تتنوع تزاويقه وألوانه.. وهن عموما تغلبهن الحشمة والحياء حتى لا يكاد يسمع لهن حديثا إلا ناذرا.

تغادر الحافلة المحطة باتجاه تزنيت فتظهر الطريق صباحا ممتدة وسط أرض حمراء قاحلة إلا من بعض النباتات الشوكية القليلة وأشجار أركان القصيرة المورقة.. أرض حجرية حمراء وسماء زرقاء وشمس خريفية حارقة يستظل الركاب من حرها بستائر النوافذ.. وكان من حظ خالد أن مقعده في الجانب الأيمن من الحافلة بعيدا عن الشمس. التفت إلى الراكب بجنبه فسأله عن المدة الزمنية المتبقية للوصول إلى تيزنيت، وطلب منه أن يخبره إذا اقتربت الحافلة من الدخول إلى المدينة.. ثم استسلم لنوم خفيف استيقظ بعده على تنبيه صاحبه له بأنه لم يبق إلا وقت قصير لنصل المدينة.. أحس خالد برجة قوية في نفسه وخفقان واضطراب في رؤيته.. ثم بدأ يستعيد توازنه

شيئا فشيئا، فشاهد نخيلا موزعا على أرض جرداء وخلفه سور المدينة القديمة الذي ينفرج في نهايته عن باب كبير يقابل مباشرة فندقا عصريا على الطريق المؤدي إلى مدينة كلميم.

توقفت الحافلة ونزل بعض الركاب ثم تابعت مسيرها لينزل الجميع في المحطة الطرقية المحاطة بأسوار تقليدية قديمة وسط ضجيج الباعة وزفير الشاحنات.

نزل خالد في الفندق الذي أرشده إليه سائق الحافلة حين شاركه العشاء في مدينة خنيفرة، ونام حتى أيقظه آذان العصر المنبعث قويا من مسجد السنة والمسجد الكبير وبدأ يسترجع ذاكرته ليحدد موقعه الجغرافي، فتعب الرحلة قد أخذ منه جهدا جعله يغرق في نوم عميق ينسى معه الموقع والرحلة.. استعاد وعيه بالمكان على إيقاع الموسيقى السوسية ودندنات الرايس بلعيد القادمة من محل بيع الأسطوانات والأشرطة الموسيقية المقابل للفندق.. ثم توضأ وصلى ودعا ربه أن ينزله منزلا مباركا وأن يؤنس غربته ويصلح أمره في هذا البلد.. فقد بدأ إحساسه بالغربة يتضخم.. لأن كل شيء حوله تغير فجأة؛ لهجة الناس ولباسهم وحتى لون الجدران الحمراء الداكنة تثير في النفس انقباضا وحزنا.. وما أن سقط الليل حتى أجهش بالبكاء وتمنى لو لم يقدم على

هذه الخطوة.. لو لم يقترب من "الطنجرة السحرية" لما قذف به إلى هذه الصحراء المقفرة ولكان ينعم بدفء مدينة فاس على مرارة ما خلفه فيها من آلام وأحزان، فالغربة تدفع الإنسان أحيانا إلى استلذاذ الواقع المر ونسيان ما كان قد هرب منه، ليلوذ من المجهول و-إن كان جميلا- بالمعلوم رغم قسوته ومرارته.

نزل إلى مقهى الفندق ليتناول عشاءه فلاحظ المشرف على الفندق انقباضه وأثار الدموع في عينيه فقال بلكنته الدارجة مخففا عنه:

- مرحبا سِّي لُستاذ. أَوَى دَابَا تْوَلَّف وتعجبك لَبْلادْ

استغل خالد الفرصة ليسأله عن موقع نيابة وزارة التربية الوطنية.. فكان الرجل طيبا ولبقا، فأرشده إلى مكتبة أحد معارفه من الأساتذة لمساعدته. وفي الصباح ذهب إلى المكتبة واتصل بالأستاذ المختار فرحب به وأخذه معه للغذاء في داره. وفي المساء عرفه على بعض موظفي المدينة من مختلف الإدارات فكان الترحيب أكثر والتعامل أرقى.. فأحس كأنه يعرف هؤلاء الناس ويعرفونه من زمان، فألفهم وألفوه منذ اللحظة الأولى وتسابق كل منهم لتقديم المساعدة.. وبعد أن صلى العشاء في مسجد السنة تناول العشاء في ضيافة حسن الموظف في

وزارة الفلاحة ثم عاد إلى الفندق وقد تغيرت أحواله وطابت نفسه للجو الأخوي والاندماج السريع.

وفي الصباح جاء حسن ليأخذه من الفندق إلى شقة اكتراها له بحي "أفراك" مشترطا على صاحبها تأجيل آداء ثمن الكراء إلى أن تستقر أحوال خالد ماديا.. ولم يكتف حسن بهذا بل أخذه إلى محل لبيع الأثاث وأخذ له فراشا وأغطية ومستلزمات أساسية للمطبخ بضمانة شيك باسمه، إلى أن يتوصل خالد بمستحقاته المالية بعد ستة أو تسعة أشهر..

دخل خالد داره. وأصبح يمتلك لأول مرة سكنا خاصا به، فأحس بالارتياح للجو الجديد والعلاقات الطيبة التي اكتملت بالتواصل مع الحاج عيسى مدير وزارة الفلاحة بالمدينة. هذا الشخص الطيب الرائع الذي تعلم منه التواضع والبساطة والتسامح.. فقد كان كثير السؤال عن خالد وأحواله وكثيرا ما كان يصحبه معه في سيارته للجولة في المدينة وبعض المناطق المجاورة.. كان لا يفتر لسانه من ذكر الله وقراءة القرآن والدعاء لمن ذكره أو سلم عليه، رجل رباني جاد وحريص على الخير أينما كان.. ذات مرة أخذ معه خالدا إلى مدينة أكادير وفي الطريق ناوله المصحف وطلب منه قراءة [سورة يس] وقبل الدخول إلى المدينة

توقف عند موقع للبناء لزيارة خاله المقاول. كان المكان بسيطا؛ جدران عارية بلا نوافذ ورمل وتراب وخشب وأكياس مكدسة من الإسمنت.. وآجر أحمر وضع عليه غطاء بلاستيكي ليكون مائدة للأكل، وبجانبه قنينة غاز فوقها مقلاة قديمة تغلي بالزيت والبيض والطماطم.. نزلت المقلاة وتغذى الثلاثة.. وما استغربه خالد هو تواضع مهندس الدولة المدير الإقليمي لوزارة الفلاحة الذي افترش متربعا كيسا فارغا من الإسمنت، فيما تأفف "الأستاذ!" خالد بداية ثم استسلم ليتعلم درسا تطبيقيا في التواضع وخاصة عند تمدد المدير الإقليمي فوق خشب البناء للراحة قبل استئناف السفر!!

علاقات أطيب من الطيب استعاد معها خالد شخصيته المختطفة وطيبوبته التي قهرتها الآلام والأحزان وأصبح يتصرف على سجيته بعيدا عن دائرة الخوف والقمع والتسلط.. وبدأ الإحساس بالغربة يتلاشى.. ومع مرور الأيام بدأ يصحح تصوره عن المنطقة وأهلها الذين ارتبط ذكرهم في مخيلته بالتجارة والكنوز وغرائب الحكايات عن السحر والفلك والتنجيم.. عايش أناسا عاديين طيبين تشغلهم نفس الهموم التي تشغله أو أكثر، فبدأ يسائل نفسه عن هذه الصورة الفلكلورية التي زكاها تواجده في محيط محافظ وسط طلبة العلم في القرويين الذين انحرف بعضهم عن مسارهم الفقهي إلى البحث عن الخوارق وأسرار

عالم الغيب. واندس في صفوفهم مشعوذون ودجالون يدعون تتلمذهم على أيدي علماء سوس في الزوايا والمدارس العتيقة.. وكلما وجدت حفرة أو نبش في مقبرة نسجت العامة حكايات عن مرور (فقهاء سوس) واستخراجهم للكنز.. فارتبط ذكر المنطقة بهذه الصورة الخرافية التي شغلت تفكيره وهو يتجه لأول مرة إلى أرض سوس العالمة.

- 2 -

# المشوار

استلم خالد عمله، وتعرف على وجوه جديدة من مختلف جهات المغرب، فكانت اللقاءات في المقاهي امتدادا للصراعات في الجامعة وتطورا غير معلن للنقاشات الفصائلية. مما أعاد خالدا إلى نقطة الانطلاق واستحضار المعارك الإيديولوجية، لكن هذه المرة بعيدا عن أجواء القمع والمحاكمات والإرهاب الفكري.. فأصبح يناقش بحرية أكثر ووعي أعمق وأنضج، مما دفع أكثر مناقشيه إلى مراجعات فكرية واكتسب صداقات لم يكن يتوقعها، كما حدث مع أستاذ سبقه للعمل بسنوات حين زاره ودخلا المطبخ معا لإعداد الشاي، فشاهد خالدا يصب الماء الساخن في المجرى، فحذره بشدة من تعرضه لانتقام الجن مما أضحك خالدا فزاد من صب الماء الساخن، ففاجأه ضيفه الأستاذ بالحديث عن تناقضات عاشها أكثر من ربع قرن من الإلحاد، فقد كان كثير الخوف من الجن وأكثر رفاقه الملحدين يعلقون تمائم للوقاية من المس وهم يتحدثون عن المادية الجدلية والتفسير العلمي للوجود والحتمية والمنطق.. فكان جواب خالد أكثر وضوحا حين فرق بين الثقافة والمعرفة والتربية.. فالتربية التقليدية أكثر تحكما في السلوك

من المعرفة المكتسبة التي تبقى -ما لم تتحول إلى قناعات- مجرد أفكار سطحية تتبخر أمام واقع عصي على الفهم والتفسير ومتحول باستمرار.. أعجب صاحبه بالجرأة والتحليل المنطقي للظاهرة وللكثير من القضايا التي ناقشاها معا أو جماعة في المقهى مع موظفين من اتجاهات مختلفة وأحيانا متناقضة.

كانت المقهى مدارا للتعارف والنقاش وأحيانا كثيرة لمجرد الترفيه لتجاوز الإحساس بالغربة وإيجاد جو من الأنس.. فتعرف خالد على أصدقاء عاشوا نفس ظروفه وهمومه وبأشكال متنوعة أحيانا.. قد تختلف تفاصيل همومهم ولكن ظروفهم الاجتماعية والثقافية رغم تشابهها، قد أفرزت استجابات ناضجة أحيانا، وأخرى متهورة ولا مبالية كرست كل وقتها للانتقام من الماضي وهمومه.. فيما استكانت اختيارات أخرى لأوضاعها الجديدة، لا تنش ولا تهش ولا تعرف إلا العمل والسوق والمقهى ومتابعة أخبار المدينة وعلاقات الناس وصراعاتهم..

اطلع خالد من صديقه أحمد التقني بباشوية المدينة على خبايا المنطقة وعلاقات الناس وثقافتهم وتنوع مشاربهم، فأصبح أكثر تفهما للأوضاع الجديدة، ولسلوك الناس ومعاناتهم ومشاكلهم.. وكانت طيبوبة أحمد وكرمه فوق كل توقع حتى أصبح أحدهما ملازما للآخر،

ومستودع أسراره، لا يقدم أي منهما على أمر إلا بعد استشارة صاحبه. وكثيرا ما استذكرا الماضي فتاها في سرد الآلام والمواجع، والأحوال الاجتماعية والعاطفية وتعرفا على بعضهما أكثر.. فلأحمد قصة غريبة أكثر من رومانسية كل الرومانسيين، إذا استذكرها نسي أنه متزوج وله أبناء.. وكثيرا ما لجأ إلى كتابة الشعر على طريقته.. فيقرأ القصيدة لخالد ويتوقف أمام كل كلمة كتبها ليشرح معانيها ومدلولاتها ويتمنى لو رجع به الزمان ليصحح أخطاءه ويستعيد فرحته.. فعرف خالد أنه ليس وحيدا في أزمته العاطفية التي جعلته يستلذ الذكرى ولا يستقر على قرار. فقد تعددت محاولاته وعثراته ووجد صديقا على شاكلته.. جمعتهما المصائب ووحدتهما الهموم.

في هذا العالم الجديد بدا خالد يتلمس طريقه نحو الاستقلال عن الأسرة والتبعية الفكرية.. فاتسمت سلوكاته أحيانا بالحدة اتجاه أي توجه للقمع أو القهر وكان حادا قاسيا مع إدارة المؤسسة واصطدم كثيرا بالمدير الذي كان يمارس ساديته على الموظفين، وينتفش كالطاووس أمام التلاميذ رفقة حاشيته من الإداريين.. غير أن خالدا رفض أسلوبه السلطوي في التسيير، فأكثر عليه المدير من الاستفسارات حتى استفسره عن الغياب عن اجتماع انتخاب لجنة تسيير المشرب الخاص بالأساتذة وحدد له مهلة أربع وعشرين ساعة

للجواب. فلم يحر خالد في الرد المناسب لأنه يعرف جيدا نقطة ضعف المدير، فاستغل حادثة عشاء عيد العرش التي تحولت إلى سرد نكث ماجنة بين مربين وسط مؤسسة تربوية.. وهي لحظة انفلات عادية في المجتمع تستنكرها القلة وتتقبلها الأكثرية. غير أنها كانت الوسيلة الوحيدة في يد خالد لكسر عنجهية المدير وسلطويته المسنودة بعلاقات إدارية لن تسنده في وضع تُمس فيه قضية وطنية كبرى يجتهد فيها كل منافقي الإدارة ليكون أحدهم أكثر وطنية من الآخر حتى وإن اقتضى الأمر أن يدوس رقبة أقرب الناس إليه.. فكتب خالد يستنكر الحدث ورأى أنه غير معني باجتماعات لا تراعي حرمة المقدسات والأحداث الوطنية الكبرى.. ترك الجواب في الكتابة واحتفظ بنسخة منه، وما أن قرأه المدير حتى أرسل في طلب الأستاذ، ولكن خالدا كان يعلم قوة الحرج الذي وقع فيه المدير فانسحب بعد نهاية حصته دون أن يعرج على المكتب وفي الغد وجد استفسارا جديدا ينبهه إلى تماطله في الإجابة عن الاستفسار السابق وعدم تواصله مع الإدارة.. وبسرعة كتب ردا يذكر فيه المدير بالرد الذي تعمد إنكاره وأرفقه بالنسخة المحفوظة عنده، وتوجه إلى الكتابة وطلب وصل التسليم، فدخل الموظف عند المدير وسلمه الجواب فخرج المدير لتوه مرتعدا ليدخل ومعه خالد، وبكل أدب وترحيب حاول تجاوز التشنج وأعلن عن

استعداده لفتح علاقة جديدة يطبعها الاحترام المتبادل شريطة سحب الجواب عن الاستفسار وطي الملف نهائيا. ففهم خالد أن الضربة أصابت المقتل وأن قادم الأيام لن يكون أبدا كسابقها وأن العلاقات ستتغير حتما نحو الأفضل.

**********

عاد خالد في العطلة الربيعية إلى فاس يشتم رائحة الطفولة ويستذكر عبق التاريخ في دروبها في أسوارها في أبوابها وساحاتها.. يود لو لم يفارقها، فقد عاش طفولته يتجول بين أحياء النخالين والرصيف والصفارين والعطارين والقريين والأندلس والحرم الإدريسي.. كل حجر فيها بذكرى، وكل مسجد فيها بسجدات.. وكل ساحة بحدث. يتجول بين أبواب مسجد القرويين ويستحضر معلوماته التاريخية حول علمائها ومفكريها وشعرائها ويدخل من باب الشماعين فيتذكر قصة العالم الجليل أبي العباس الونشريسي، ومعياره المعرب، وقصة تأليفه ووفاته، ويقف قرب باب المئذنة ويستعيد ما يحكى عن سيف الإمام إدريس الثاني المعلق بجنب هلال الصومعة. ويطل على حلقات العلم بجانب السواري المضاءة بنواقيس كنائس الأندلس وقد رصفت بمواقد الشموع قديما وتم تعويضها حديثا بمصابيح كهربائية. حلقات

تستحضر ساعات لذيذة قضاها خالد مع الشيخ بنكيران والشيخ العلمي رحمهما الله يتعلم منهما قواعد التجويد ويستظهر محفوظاته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ويتتبع مواقع الكراسي العلمية القديمة في اللغة والمنطق والفلسفة والرياضيات والفلك والطب.. خرج خالد من القرويين باتجاه ساحة الصفارين ليتذكر حادثة طريفة مر بها وهو في الثانية عشرة من عمره حين دخل مكتبة القرويين، المقابلة لساحة الصفارين، ووضع بطاقته المدرسية عند المحافظ وسحب كتابا، ثم اتجه خطأ إلى الجلوس في الجناح الخاص بالنساء، فنهره المحافظ بكلام فظ غليظ لم يتحمل قساوته، فخرج ولم يعد إلى المكتبة إلا بعد أن حصل على البكالوريا.

استراح وسط اسرته وأصدقائه وفرح الأب بابنه الأستاذ، وتغير تعامل زوجة أبيه وأصبحت المائدة لا تنزل إلا بعد حضور خالد مع مراعاة ما يحب من الطعام.. وفي آخر أيام العطلة بحث خالد عن أحد أصدقائه الذي كان قد اقترض منه بعض المال -عند خروجه من فاس- ليرده إليه، فبحث عنه بعد الصلاة، ولم يجد إلا برهوم الرجل السلفي المعروف بهيئته الأفغانية، ومواعظه، وتشدده في محاربة البدعة، والمحافظة على السنة والجماعة، وفتاواه الصارمة في الدين والسياسة والاقتصاد والجهاد.. مع أن مستواه التعليمي لا يتجاوز الخامسة

ابتدائي وتجربته الحياتية لا تخرج عن التجارة في الأسواق.. ومع ذلك كان يحظى باحترام خالد ولا يناقشه في قناعاته وأفكاره -رغم مؤاخذاته الكثيرة على المنهج السلفي- حفاظا على المودة والصداقة والجوار:

- أهلا بالأخ العزيز.. حمدا لله على سلامتك أستاذ خالد

- كيف حالك أخي برهوم وكيف حال الأسرة؟

ثم سأله عن كريم. فأخبره أنه رحل عن الحي منذ شهور إلى المدينة الجديدة بطريق صفرو، وهو الآن مرتبط بالعمل مديرا لإحدى شركات السخانات بطنجة. وأنه لازال يتواصل معه باستمرار في نهاية كل أسبوع تقريبا. وللثقة التي يضعها فيه خالد أعطاه مبلغ ألفي درهم في غلاف:

- لو سمحت سيدي برهوم هذا دين لكريم علي، وأنا مسافر غدا إن شاء الله وليس لدي وقت للبحث عنه.. أبلغه سلامي وأعطه هذه الأمانة.

- بكل فرح أيها الأخ الكريم أمانتك وصلت، يسر الله سفرك ورافقتك السلامة.. لا تنسانا من دعائك.

**********

رجع خالد إلى عمله بالجنوب وواصل نشاطه ونقاشاته، وفي جو من الأخوة والعلاقات الطيبة اقترح مفتش مادة اللغة العربية على مجموعة من الأساتذة حلقة لمناقشة قضايا علمية تتصل بالنقد والبلاغة، يتكلف كل مرة أستاذ بعرض حول كتاب أو شخصية علمية. فسارت المناقشات واللقاءات وأعقبها تنظيم ندوات تتصل بالحياة الثقافية والمجال التربوي فشارك خالد بفعالية في هذه الدورات التي أثمرت جهدا مباركا تتوج باقتراح جمع نصوص للبلاغة العربية تصلح لتمرين الناشئة على القواعد ونصوص أخرى تكون مجالا للاختبارات الدورية، فتقوت العلاقة بين المجموعة التي أنتجت عروضا مكتوبة واقتراحات لتطوير التعامل مع التراث النقدي، فتحمس خالد للمشروع وحدث به بعض الأساتذة قصد إدماجهم للإسهام في تطوير الفعل الثقافي، بدل استهلاك الوقت في المقاهي حول قضايا تافهة كثيرا ما تنتج عداوات وصراعات، ولكن هذا الجهد قوبل من البعض بسخرية خفية، ظهر صداها بقوة مع ما نُقل إليه مما يدور خلفه من أحاديث تتهكم بالفكرة، وأخرى ترى أنها دعوة خفية للسيطرة الثقافية على الساحة لحساب جهة سياسية لم تعلن عن نفسها بوضوح، خاصة وأن أحداث الصراع بين اليساريين والإسلاميين في جامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس مازالت تخيم بظلالها على النقاشات

فقام رفاق الكونفديرالية الديموقراطية للشغل بتنظيم ندوة حول (التيار الإسلاموي وأهدافه السياسية) وتمت استضافت أحد الرفاق القاعديين من جامعة ابن زهر بأكادير، فصال وجال وكال لخصومه من التهم الأخلاقية والسياسية ما تعجز الجبال عن حمله.. وفُتح المجال للتدخلات فأخذ خالد الكلمة محاولا كعادته عقلنة النقاش وإدانة التطرف والإرهاب:

- اسمحوا لي بداية أن أحيي الحضور وأن أطرح مسألة تنظيمية تخص هذه الندوة التي من المفروض أن تكون موجهة من الأطر التعليمية إلى عموم الناس وخاصة الطلبة والتلاميذ بصفتهم فئة مستهدفة وبصفتنا فئة لها تجربتها ونضجها.. وما ألاحظه أن المكتب النقابي عكس الأمر وقلب الوضع حين جعل الطلبة يحاضرون في موضوع حساس جدا أمام أطر التربية والتعليم..

تعالت الصيحات ورفعت الشعارات وصدرت الأحكام:

- عناصر مشبوهة المناضلين رفضوها..

واقترب منه بعض الطلبة والمعلمين يريدون إخراجه من القاعة لولا تدخل أحد الأساتذة الذي طالب بفتح المجال للحوار، وأشار إلى

معرفته الجيدة بالأستاذ المتدخل، وأنه مناضل ونقابي وليس عنصرا مشبوها..

استعاد خالد أجواء الصراع الطلابي وأحس أن لا شيء قد تغير؛ نفس التفكير المغلق القاتم.. نفس السوداوية تسيطر على أطر التعليم؛ ايديولوجيا مغلقة، وعقل مغيب، وصراع حزبي يقتل كل تفكير خارج الدائرة المرسومة، ويستهدف كل حركة في اتجاه تحرير العقل للانفتاح على سلوك نضالي حقيقي يجمع قوى التغيير، ويحدث ثورة ثقافية تسهم في بناء مجتمع يعيش الوحدة رغم الاختلاف، ويعيش الهم الجماعي بدل الهموم الخاصة، ويعاني من الصراعات الحزبية التي يوظفها الطغيان والظلم للمزيد من التفرقة والضعف.

أصبحت الندوة مدار حديث المقاهي وتجددت التكتلات، ونمت الأحقاد من جديد في جو بدأت الظاهرة العرقية تتغذى فيه بنزعة يسارية متطرفة، ومتجاوزة للأممية التي وجد من أجلها اليسار الماركسي في عجينة مغربية جديدة، فسرها خالد بالمنجدات التي يحاول من خلالها اليسار إثبات وجوده في الساحة وينقذ نفسه من الانهيار الذي أوصله إليه الفكر المغلق والأيديولوجية القاتمة بعد سقوط التجربة سياسيا وثقافيا بسقوط الاتحاد السوفياتي.

اشتد حنق الرفاق، وحاول بعضهم فصل خالد عن النقاشات الفكرية التي تدور في المقهى فرتب خطة بدأ فيها بالوشاية الكاذبة وأعلن أن خالدا يصف رواد المقهى اليساريين بالسكارى والانتهازيين الفاسدين.. وما أن أطل خالد على المجموعة حتى أحاطوا به من كل جهة يستفسرونه عن اتهاماته في تجهم واستنكار واضح احتار معه خالد كيف يرد أو يجيب:

- من أخبركم بهذا؟ أنا لم أتهم أحدا.. يبدو أن الأمر فيه ما فيه!

وأمام هذا الجو المشحون لم يجد خالد بدا من الانسحاب غاضبا. ولم يعد إلى المقهى طيلة الأسبوع احتجاجا على السلوك الصبياني الذي ظنه من افتعال المجموعة نفسها حتى لقي أحدهم في السوق فأخبره عن اعتذارهم لأن زميلهم في لحظة سكر أخبر نديمه أنه شوه صورة خالد ولن يدعه حتى يطرده من المدينة ويستريح من انتقاداته للمناضلين..

في الصباح دخل خالد قاعة الأساتذة ووقف أمام زميله يستفسره عن سلوكه العفن:

- أما تستحي أهذه أخلاق المربي.. اهذه أخلاق الرجال؟؟

تلعثم عروب ولم يجب بشيء وحاول جر خالد خارج القاعة:

- خالد لا تنفعل تعال نتفاهم على انفراد نحن عرب لا أريد أن يعرف الشلوح (الأمازيغ) مشاكلنا..

(انتزع خالد نفسه منه وهو يقول):

- الشلوح أطهر منك وأنقى من قبيلتك.

انسحب خالد من القاعة وتداول الأساتذة خبر المناوشة، بينما اتجه عروب يبحث عن مفتش اللغة العربية فوجده في المكتب الخاص بالمفتشين داخل المؤسسة وطلب إدراج درس نموذجي يلقيه بحضور الأساتذة فاستغرب المفتش الأمر بداية.. وعندما وصله خبر المناوشة عرف أنها محاولة للتقرب لا غير. وفهم خالد تخوف عروب من الانتقام عن طريق استغلال خالد للعلاقة الطيبة التي تربطه بالمفتش وما أدراك ما المفتش زمن البصري وسنوات الرصاص. فقد كان بعضهم وهم قلة يحسبون الأستاذ خلق لطاعتهم وخدمتهم.. وكان من هذا الصنف مفتش إحدى المواد العلمية الذي كان يسير بلحيته الستالينية يرفع رأسه إلى السماء ولا يرضى الجلوس مع الأساتذة، وإذا كلمهم فباحتقار شديد وتعال كبير، فكان ينقل أستاذيته معه ويتصرف مشرفا ومفتشا حتى في الشارع والسوق.. فرسم صورة

موسولينية لا تمحى من ذاكرة خالد مقارنة بالصورة الإنسانية المثالية لمفتشي بقية المواد وخاصة مادة اللغة العربية والفلسفة.

مر الدرس في ارتباك واضح وخلْطٍ بين المراحل والمفاهيم.. ورغم المناقشة الحادة للدرس، كان مفتش المادة رجلا عاقلا طيبا.. نصح الأستاذ بضبط النفس والحرص على اكتساب المعرفة والعلاقات الطيبة بعيدا عن التشنج والصراعات.

**********

تعرف خالد على جاره العسكري ابن مدينة تاونات فكان كثيرا ما يجالسه وأحيانا يأتيه بالغذاء أو العشاء جاهزا ويتناولان الوجبة معا فعرفه على أسرته وأوصاه بهم خيرا أثناء غيابه. وتوطدت العلاقة بينهما خاصة عند اقتراب امتحانات الباكلوريا التي تستعد لها ابنته الكبرى والتي تدرس بنفس الثانوية التي يعمل بها خالد. وكان الجار على موعد مع زيارة ابن عم له يقطن في ضواحي مدينة انزكان فاستدعى خالدا للغذاء عنده لأول مرة، فحاول الاعتذار ولكن الجار أقسم عليه فلبى الدعوة شاكرا. دخل خالد دار جاره بترحيب واستقبال وسلم على ابن عم الجار الذي لاحظ عليه بعض علامات الارتباك وهو ينتبه بشدة إلى

ملامح خالد ويتفحصه جيدا.. وتبين لخالد أن هذه الملامح ليست غريبة عنه فخاطبه مرحبا:

- أهلا سيدي شرف لي أن أتعرف على الأسرة الكريمة.

فأجاب الضيف باقتضاب:

- أهلا

وتدخل الجار:

- هذا ابن عمي الذي حدتثك عنه يا أستاذ خالد

أجاب خالد وهو يحاول استرجاع الملامح واستحضار شريط الذكريات:

- ملامح ابن عمك ليست غريبة عني..

لم ينتظر الضيف وقال باقتضاب:

– يخلق من الشبه أربعين.

ثم أشار إلى ابن عمه أن يحضر له ماء ساخنا، فقام الجار وتبعه الضيف ثم عادا بغير الوجه الذي خرجا به وأصبح كلامهما مقتضبا وقليلا.. مما أثار انتباه خالد فحاول التقرب أكثر من الضيف الذي يرتدي قميصا صحراويا ويضع على رأسه طاقية بيضاء:

- أخبرني مسعود أنك تسكن بضواحي انزكان

تدخل مسعود مرتبكا:

- لا هو جاء من مراكش أما من حدتثك عنه فهو شخص آخر من بني عمومتي لم يحضر مع الحاج.

وأثناء الغذاء طفحت الذكرى مع ضحكة قصيرة من الحاج فترت عن سن فضي.. ضحكة يعرفها خالد جيدا. وقال في نفسه:

- يا إلهي أيعقل أن يكون هذا هو؟ ما هذه الصدفة؟ لن يفلت مني سأتركه يفصح عن ذاته.

بعد الغذاء الذي تخلله حديث متقطع يعكس ارتباك الجار وابن عمه، وجه خالد الكلام إلى الضيف:

-كنت أرى قبل سنين شخصا شبيها لك بفاس..

ازداد ارتباك مسعود والضيف الذي حاول تغيير مجرى الحديث فاستأذن مسعود في الانصراف، لكن خالدا كان سريعا في استعادة الحوار وقويا في كشف المستور فقال بصوت قوي وحاد:

- انتظر أسِّي اعْلي. لي معك حديث طويل.

فوجئ مسعود وقال مرتبكا:

- من سِّي اعْلي؟ هذا الحاج اسْعيد.

وقال الضيف مستنكرا:

- سِّي اعْلي! أنا الحاج اسْعيد.. قلت لك يخلق من الشبه أربعين.. (واستدار إلى الجار مستغربا)سي مسعود؟

قاطعه خالد بصوت قوي:

- سي اعلي "مسقط الطائرات". انا خالد.

ساد الصمت ونظر مسعود بخوف إلى ضيفيه، شيء ما لا يفهمه وكلام أشبه بالطلاسم فمسعود ملازم أول عسكري والحديث عن إسقاط الطائرات مقلق ومخيف.. ما هذه الورطة التي أوقع فيها نفسه؟ ألا يكون سّي اعْلي هذا أحد عناصر البوليساريو كشف خالد أمره؟ ومن يكون خالد الذي يتحدث إلى الحاج اسعيد بهذه القوة والجرأة؟ أليس فردا من المخابرات يستخفي في مهنة أستاذ، ويشتغل في هذه المنطقة القريبة من جبهة الصراع في الصحراء؟ أي حظ هذا وقع فيه؟ تغيرت سحنة وجهه وظهرت فجأة شخصيته العسكرية وقال بحدة:

- انتباه. لا أحد يخرج من هنا حتى اتصل بالقيادة العليا.

ارتجف سّي اعْلي وقال:

- سي مسعود ما دخل القيادة؟ خالد جار قديم تذكرته الآن أيام كنت أتردد على أسرته، وكانوا كرماء معي. وكان يمازحني كثيرا..

لازال الرقيب مسعود لم يستوعب الموقف:

- وما دخل إسقاط الطائرات.. هذا أمر لابد من إبلاغه للقيادة العليا

ضحك خالد حتى استلقى على الفراش وهو يمسك بطنه وقال:

- هي مزحة حضرة الرقيب (mon Sergent)؛ ولقب أطلقته أكثر من عشر سنوات على سِّي اعْلي الذي زعم أن لديه طلسما يكتبه في يده ويستطيع به إيقاف كل شيء حتى الطائرات في السماء.

ومن خلال الحوار تبين لخالد أن لا علاقة أسرية بين مسقط الطائرات ومسعود الذي لا زال متشككا في الحوار ومحاولا تبين الموقف دون ان يحرج نفسه مع جاره خالد:

- أستاذ: أنا عسكري لا أرحم ولدي أو ابن عمي إن كان خائنا للوطن.

عقب خالد:

- كلنا كذلك حضرة الرقيب.

حاول خالد فتح الحوار مع مسقط الطائرات ولكنه سارع إلى إغلاق الباب مخاطبا خالدا:

- سي خالد الكلام بيننا طويل والناس الطيبون مثلك قليلون (وغمز خالدا) أنا اسمي الحاج اسْعيد من مراكش. مرحبا بك مع ابن عمي في أي وقت تشاء.. وإن كنت ذاهبا إلى فاس فعرج علينا وهذا رقم هاتفي (وناوله ورقة مكتوب عليها بعض الأرقام).

أدرك خالد الوقت للذهاب إلى العمل وأجل النقاش حول جرائم مسقط الطائرات حتى لا يورط نفسه مع الرقيب العسكري في قضية قد تذهب به شخصيا حين يصل الحديث إلى التستر على جريمة النصب والاحتيال أو المشاركة فيها.. اعتذر لجاره، وخرج متجها إلى العمل ولم يعلم ما الذي حدث بعد ذلك بين العسكري والمشعوذ مسقط الطائرات. ولكن ظلت الكثير من الأسئلة المحيرة تراود ذهنه.. غير أن الشيء الذي لم يستوعبه هو الغياب التام لجاره وانقطاع العلاقة معه تماما فلم يعد يسأل عنه ولا يطرق بابه -كما كان- بغذاء أو عشاء. يبدو أنها وصية من مسقط الطائرات، أو أن الحس الأمني العسكري استيقظ عند الجار أكثر من اللازم فخاف أن يكون خالد عنصرا في الاستخبارات العامة.. كل شيء وارد والأيام وحدها التي رتبت

هذا اللقاء ستجيب عن السؤال بوضوح أكثر. فتلك طبيعة الحياة التي تفاجئنا دائما بمواقف وحقائق كنا نظنها انتهت وأغلقت دونها أبواب فإذا بها أقدار حية شاخصة تصفي الحسابات وتنتقم للضحايا.

اقتربت السنة الدراسية من النهاية وفوجئ خالد برحيل جاره العسكري مسعود دون وداع أو إعلام جيرانه فأحس خالد أن القضية بدأت تأخذ أبعادا أمنية قد تعصف به في أي لحظة. وبدأ يرسم توقعات تم يمحوها ليدخل في تحليلات واستنتاجات لو صدقت ستعصف به بعيدا وتهدم كل آماله وطموحاته في الاستقرار وينتهي مشواره الثقافي والوظيفي وحتى الأسري.. ماذا لو تم القبض على مسقط الطائرات واعترف بالنصب وجر معه المجموعة؟ ماذا لو اعترفوا ظلما على خالد؟ هل يواجه؟ هل يتابع الموضوع؟ أم يسقط الأمر كله وينتظر ماذا تأتي به الأقدار؟ لعل العسكري فعل خيرا حين رحل وطوى الملف. وابتلعت الأرض من جديد اسْعيد ومسعود.. ولربما يكون التقادم سبيلا للخروج من المأزق فيستريح خالد من وخزة الضمير وخطورة الموضوع.

**********

شارفت السنة الدراسية على نهايتها وكانت السلطات في تزنيت تستعد للاستحقاقات الانتخابية القادمة في الخريف. فوصلت فرقة من

الحرس إلى المدينة، وكان قائد الفرقة من مدينة سطات يبحث عن منزل لاستقبال بعض أفراد عائلته القادمين من أوروبا. فاقترح عليه أحد موظفي الخيرية التي نزلت بها الفرقة الاتصال بالأستاذ خالد من مدينة فاس، فهو يسكن وحده في منزل مستقل، ولن يمانع من تقديم المساعدة. تواصل قائد الفرقة مع خالد عبر وساطة الموظف، فرحب به وبأسرته وأدخله داره. وفي المساء تم استجلاب كل الحاجيات من أغطية وأفرشة وأوان من الخيرية وتم تجهيز المنزل لاستقبال أسرة القائد.

وبعد يومين وصلت الأسرة ومعهم طفل صغير معاق. وتعرفوا على خالد وتعرف عليهم. وفهم أن هدفهم من الزيارة هو البحث عن علاج للطفل، فقد أرشدهم أحد سكان مدينة أكادير المقيم معهم في أوروبا إلى وجود شيخ في منطقة سوس معروف بخوارقه وبركاته وتحكمه في الجن، وقد شفي على يديه أناس من الإعاقة والشلل والكثير من الأمراض المستعصية.. ناولته أم الصبي ورقة عليها رقم هاتف أحد معارف صديقهم في أكادير ليدلهم على مقر الشيخ، فحذرها خالد من النصابين والمحتالين.. لكن الأم ومعها بقية الأسرة مقتنعون جميعا بأن الطفل به مس من الجن حسب ما شخصه جارهم السوسي في أوروبا.

أخذ القائد رقم الهاتف واتصل بالمرشد فحدد معهم نهاية الأسبوع ليرتب اللقاء مع الشيخ. وبعد يومين استعدت الأسرة للذهاب إلى الشيخ من خلال العنوان الذي توصلوا به من المرشد، وطلبوا من خالد الذهاب معهم لزيارة الشيخ والفسحة في أكادير فلم يمانع فهي فرصة للوقوف على صحة كلامه واكتشاف طريقة الشيخ في التعامل مع الموضوع.

وصلت السيارة إلى مدينة آيت مَلُّول وعرجت على طريق هامشي قبل الدخول إلى مدينة أكادير، وبعد بضع كيلومترات أرشدهم أحد سكان المنطقة إلى دار الشيخ الواقعة على بعد أمتار قليلة بين شجرتي كالبتوس تحيط بها حديقة، وتظهر الدار وسطها على شكل إقامة جميلة.. وبجانب الشجرتين تصطف سيارات متعددة بعضها من النوع الفَارِه.. على مدخلها كتبت آية قرآنية (ادخلوها بسلام آمنين).

توقفت سيارة الأسرة، ودخل الجميع بهو الفيلا بمصاحبة الخادم الذي يرتدي جلبابا أبيض وطاقية بيضاء وفي عنقه سبحة غليظة.. ولسانه لا يفتر من الترحيب والتسليم لأهل الوقت من الشيوخ والجن:

- التسليم لأسيادنا أصحاب الوقت،

ويطلب من الحضور الصلاة على النبي:

- صلوا على النبي.. صلوا على النبي خاتم الرسل

جلس الجميع في البهو في انتظار الدور.. ولاحظ خالد وجود سيدات يظهر من هيئتهن أنهن من الطبقة الراقية يتحدثن الأمازيغية والفرنسية وتبين له من حديث إحداهن أنها أستاذة جامعية تعرضت لانتكاسات اجتماعية أثرت على حياتها العملية، وجاءت تطلب مددا من الشيخ المبارك.. بعد لحظات سمع صراخا وبكاء فبدأ الخادم يصلي على النبي ويطلب التسليم ويتحدث عن قهر الشيخ للمارد.. فيستجيب الحضور ويحس أكثرهم برهبة الموقف، فتعظم في النفوس هيبة الشيخ والمكان..

وجاء دور الأسرة. فقادهم الخادم إلى قاعة كبيرة مفروشة بزرابي حمراء وعلى جوانبها أرائك رمادية اللون، وفي نهايتها باب أرخيت عليه ستائر خضراء وحمراء وسوداء مع رائحة بخور خفيف.. وبعد لحظات خرج الشيخ في لباسه الأبيض الواسع وعمته الخضراء وعلى عينيه نظارات طبية من الحجم الواسع.. فألقى السلام وقامت إليه الأم تطلب التسليم كما أوصاها بذلك الخادم (طالبين التسليم أسيدنا الشيخ) ربث على كتفيها ومد يديه إلى الصبي المقعد على الكرسي المتحرك:

- الحاجة مقضية الحاجة مقضية.. أينكم يا أسيادنا أصحاب الوقت..

والتفت إلى باقي أفراد الأسرة فوقعت عيناه على خالد الذي ظل صامتا وحائرا أمام المشهد والصدف العجيبة، فارتبك الشيخ ودخل مسرعا خلف الستائر، وبسرعة تبعه خالد. فاستغربت الأسرة من الواقعة وصرخت أم الصبي من المفاجأة خوفا على خالد الذي قد يكون اختطفه أحد الجن باتجاه الشيخ. وجاء الخادم من البهو مسرعا يطمئن الحضور ويطلب التسليم.. وغطى الأم -الممتدة على الكنبة بجانب أخيها وهي تشهق وتبكي- بإيزار ابيض، مطمئنا الأسرة:

- هذه أمور تحدث دائما مع الزوار.. لا تخافوا

خلف الستائر يوجد بيت منفتح على الحديقة عبر نافذة وباب، أرضيته الرخامية مغطاة بزربية تقليدية على جوانبها مخدات وفراش ممتد عريض من فرو الغنم بصوفته البيضاء الناصعة، وكتب قديمة، وأوراق مبعثرة، ومبخرة كبيرة تتوسط البيت.. وعلى الحائط علق جلد أسود موصول برأس ماعز كأنه يهوي من الأعلى ويثير في النفس رهبة وخوفا...

وقف الشيخ وسط البيت مذهولا من المفاجأة وأمامه خالد بعد سنة كاملة من اللقاء الأول في دار الرقيب مسعود بتزنيت. فقال خالد في لهجة المنتصر:

- سِّي اعْلي مسقط الطائرات، مرة أخرى. أنا قدرك وأنت قدري.

- ماذا تريد مني؟ من الذي سلطك علي؟ انصحك أن تخرج من طريقي.. انت تعرفني جيدا. يمكنني أن اتصل بأحد معارفي الآن ليمحو اسمك من وزارة التعليم ويريحني منك..

ضحك خالد وقال: - ولم لم تفعل؟ من الأحسن أن تسخر الجن وطلاسمك السحرية أما البشر فأنت تعلم جيدا ماذا ينتظرك.

- خالد. من الأحسن ان تريح نفسك.. من يعترضني..

قاطعه خالد:

- يقتل. كما قتل التاجر الحاج أحمد بنسلام أليس كذلك؟

ارتبك مسقط الطائرات:

- من قتله؟

- لا أحد غيرك وكل التفاصيل عندي..

- انت مفتري كذاب لابد أن أتخلص منك..

_ هذه المرة أنا من أملك الطلسم لإسقاطك.. وقبل أن تعلم التفاصيل أرجو أن نخرج معا لطمأنة السيدة واسرتها ثم نتحدث بهدوء.

أمام دهشة الجميع خرج الشيخ من خلف الستائر ومعه خالد مبتسما فكبر الشيخ وقال:

- هذا الشاب الذي جاء معكم ولي من أولياء الله، وأنتم ضيوفي حتى تنتهي جلستي مع الشريف خالد..

استغرب الجميع من الظهور المفاجئ.. وطمأنهم خالد أنه بخير وأن الجميع في ضيافة الشيخ، ثم وضع يده على كتف صاحبه مستأذنا في الخلوة مع غريمه الذي أوصى الخادم خيرا بالضيوف ثم اختفيا معا خلف الستائر.

خرجا من البيت عبر الباب الخلفي إلى الحديقة حيث يوجد متكأ ظليل تحت أغصان متشابكة من شجيرات قصيرة القامة، وعشب أخضر يغطي المكان.. فنظر خالد إلى صاحبه قائلا:

- سي اعلي ألك أولاد؟

- وما دخل الأولاد في الموضوع؟

- مجرد فضول.. ولأتعرف عليك أكثر

- دعنا من هذا فقد تزوجت ثلاث مرات ولم أرزق بولد.. لكن المرأة الثالثة كانت أرملة ولها بنت وولد وهما مثل أبنائي.

- لا شك أنها كانت إحدى زبائنك المترفات قبل وفاة المرحوم؟

انتفض مسقط الطائرات غاضبا وحاول تغيير الموضوع، فتابع خالد قائلا:

- ولربما هذه الفيلا كانت في ملكية المرحوم الذي قد..

قاطعه غاضبا وارتبك قبل أن يهدد بنهاية الجلسة وتصفية خالد جسديا إن لم يبتعد عن طريقه.. لكن خالدا استمر في حديثه:

- تعلم جيدا أن الحاج أحمد بنسلام بعد أن أخذت منه عشرين مليون سنتيم لشراء بخور ولوازم استخراج الكنز.. ثم اختفيت عن الأنظار أصيب بالشلل النصفي وتوفي بعد ذلك بستة أشهر..

- وما دخلي انا في موته؟ قضاء وقدر.

- كان يطمع أن ينال نصيبا من الطنجرة الكبيرة المملوءة بالجواهر والذهب فأخذت ماله ومال تجار آخرين وكنت السبب في الصدمة والوفاة.

_ مغفلون والقانون لا يحميهم.. وليس لأحد عليّ حجة.

- ولكن أبناءه يبحثون عنك. ودم أبيهم في رقبتك ولربما صرفت الشيك باسمك.

حاول مسقط الطائرات إغراء خالد بالمال وتارة بالتهديد ثم لجأ إلى محاولة إرضائه بالانتقال إلى أي مدينة يريدها مقابل (ما رأيتك وما رأيتني وما سمعتك وما سمعتني) ولكن خالدا أصر على ضرورة إرضاء أبناء الحاج أحمد على الأقل برد المال إليهم. ثم سأله عن ابن عمه الرقيب مسعود:

- أين رحل ابن عمك مسعود؟

ضحك حتى بدت سنه الفضية وقال:

- هل رحل؟ لا أعرف عنه شيئا سوى أنه أحد الزبناء.. كان يريدك زوجا لابنته، فطلبت منه أن يدعوك لغذاء في منزله لآخذ حذاءك وأضع فيه قصاصات من شعر ابنته من القارورة السحرية التي تلوت عليها بعض العزائم.. ثم تأتينا ابنته بالشاي مع كأس مخصص لك.. هههههه.. لكنه حين سمع إسقاط الطائرات استيقظ حسه العسكري وشك في كونك مخبرا تختفي في صورة أستاذ.. وهو ما نفيته عنك بعد خروجك، واخبرته أنك من عائلة معارضة بقوة لسياسة الدولة.. وقد هادنتك حتى لا نتورط معك في مشكل سياسي.. وقد يكون لك من دون شك ارتباط بجهة معادية لوحدتنا الترابية..

ضحك خالد كثيرا من سذاجة الرقيب، وقال:

- لم فعلت هذا أيها الشيطان الحاج اسْعيدْ؟

- حتى لا يلقاك ولا تلقاه فتحدثه عن أمري

- سيفضحك الله عاجلا أم آجلا.

- أستاذ خالد شرط بشرط، الستر بالستر، والفضيحة بالموت، والسجن بالسجن؛ جار ومجرور.

حاول خالد إنهاء الجلسة وأكد لصاحبه مبادئه في الحياة:

- اسمع امّي اعْلي. أقدار الله فوق كل ظالم، والدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فازرع ما تحب أن تحصد، لن يطول المقام ولن تنسى الآثام.

وقبل أن ينصرف الشيخ إلى زبائنه طلب من خالد عدم مناداته باسم سي اعْلي، فاسمه هو الحاج اسْعيدْ الزْناتي المعروف بالشريف. وفهم خالد أن الشيخ استبدل اسمه القديم باسم جديد حين هرب إلى الجنوب لأنه لم يكن يملك وثيقة للتعريف إلا شهادة المقدم الموقعة من قائد الجماعة قبل تعميم النظام الحديث للبطاقة الوطنية، وحتى والده المرحوم كان متزوجا عرفيا بدون وثائق إثبات ولا دفتر للحالة المدنية مما سهل عليه التخفي والتزوير.

استقبل الشيخ أسرة الطفل بترحيب كبير وثناء على خالد، وأنهى جلسته معهم دون أن يأخذ منهم أجرا إكراما للشريف خالد. وفي هذه اللحظات استغل خالد فرصة اشتغال مسقط الطائرات مع الأسرة للانفراد بالخادم الذي اعتقد أن خالدا من أسرة الشريف جاء لزيارته، واستدرجه لأخذ معلومات عن الحاج الشريف وأسرته فتأكد من تخميناته حول الزوجة الثالثة وابنتها ذات الثماني سنوات وابنها المعاق ذو العشر سنوات، وأن الزوجة في صراع مع إخوة زوجها السابق حول الإرث وكفالة الولد...

خرج الجميع من دار مسقط الطائرات وقد احتارت الأسرة في سلوك خالد مع الشيخ، وماهي نوعية العلاقة التي تربطهما؟ فلا الشيخ وضح ولا خالد تكلم، غير أن أم الصبي حاولت فهم اللغز وسألت خالدا عن معرفته بالشيخ، فضحك خالد محاولا تفسير دخوله الخلوة وراء صاحبه:

- لو كان الخوخ يداوي لعالج نفسه.. سيدتي لا تتعبي نفسك فالشيخ كان يسكن في تزنيت وله ولد معاق في العاشرة من عمره، ولما رآني خاف أن أسأله عنه أمامكم.. وحين خلونا سألني عنكم واستعطفني ألا أذكر لكم شيئا عن ابنه المعاق.. هو نصاب يسترزق بآلام الناس وغفلتهم.

لم يكن كلام خالد مقنعا للأسرة، فتعددت أسئلتهم حول العلاقة مع الشيخ والجلسة الطويلة الممزوجة بأصوات مرتفعة أحيانا.. إلا أن خالدا لجأ إلى الصمت والتجاهل تارة والأجوبة الفضفاضة المقتضبة تارة أخرى.

عاد خالد إلى داره واختلى في بيته يسترجع تفاصيل لقائه بمسقط الطائرات ويحلل كلامه وتهديداته بالقتل أو السجن ويستحضر إغراءاته بالمال والانتقال.. فأحس بأنه أصبح في خطر لأن (سي اعلي) رجل خطير لا يرحم من يخطئ في حقه، ولا يرتاح إلا إذا ألغى خصومه من الساحة. وبدأ يحاور نفسه ومبادئه:

- المسقط سار في درب لا يمكنه الرجوع منه، وهو شديد الحذر ومجرم لا يترك خلفه أثرا.. لا بد أنه يخطط للتخلص مني بالتصفية أو بالإغراء، كيف أواجه الموقف؟ لن اشاركه المال الحرام ولن أسكت عن جرائمه.. ماذا لو أشركني معه في الجريمة، كما قال جار ومجرور؟؟ .. الستر بالستر، هذا أفضل وأسلم من الجرجرة والمصائب.. المهم الآن هو الحذر والتصرف باحتياط شديد.

بعد أسبوع من الحدث، سافر ضيوف خالد وتركوا له هدية كما أوصاهم بذلك الشيخ حين رفض أخذ أجرة (الفتوح) منهم قائلا:

- شيء واحد أطلبه منكم قدموا هدية للشريف خالد، وأخبروه أنها هدية محبة وإكرام مني إليه.

الرسالة واضحة إذن، لا تحتاج إلى تأويل؛ الإغراء مقابل الصمت.

**********

مرت امتحانات البكالوريا وكانت السنة على وشك الانتهاء فاتجه خالد إلى المحطة الطرقية لحجز مقعده في الحافلة المتجة إلى فاس، وبينما هو في طريقه استوقفه شخص لم يكن يتوقع إطلاقا لقاءه في هذا المكان ودهش للصدفة الغريبة التي جمعته مع صديقه كريم، فارتمى كل منهما في أحضان الآخر، وتبادلا كلمات الود وكلاهما مندهش لغرابة اللقاء. بادر خالد بسؤال كريم عن سبب وجوده في هذه المدينة وكان العهد به أنه يعمل في طنجة كما أخبره السيد برهوم في آخر لقاء قبل سنتين. فأجابه كريم أن الشركة فتحت فرعا جديدا لها في مدينة أكادير وهو الآن يعمل مديرا لهذا الفرع وقد جاء إلى تزنيت لترتيبات عملية مع بعض الزبائن. كما عرف كريم أن صديقه خالد يعمل أستاذا في هذه المدينة منذ ثلاث سنوات. وأردف خالد:

- قبل سنتين سألت عنك السيد برهوم وأخبرني أنه على صلة مستمرة بك. ألم يبلغك سلامي؟

- بيني وبينه سنوات منذ أن بدأت العمل في طنجة..

رد خالد في استغراب:

- والأمانة؟!

- أي أمانة يا خالد؟

- الدين!!! أعطيته الألفي درهم التي اقترضتها منك ليوصلها إليك!!!

ولطيبوبة كريم أحس أن الأمر فيه حرج لصديقه خالد فتناسى متعمدا: - لا أذكر أخي خالد أن لي عليك دينا.

ارتبك خالد وهو يستذكر لحظة تسليم الأمانة لبرهوم وقال لكريم:

- لا. لا. لك عليَّ دين وأنت تذكره جيدا، فهل تسلمت شيئا من برهوم؟

رد كريم بطيبوبة زائدة وأخلاق عالية:

- أخي خالد لم أر برهوم ولم أتسلم منه شيئا. وأنا لست محتاجا للمبلغ فسامحه الله وغفر لنا وله، ولن نكون أبدا سببا في دخوله النار.

أحس خالد برعشة شديدة مع برودة تختلط بعرق ساخن، ودارت به الأرض فأمسك بالحائط القريب منه وهو يحوقل ويسترجع.. ثم التفت إلى كريم:

- أنت اسم على مسمى.. سأتصل ببرهوم عبر الهاتف، وبعد يومين إن شاء الله سأكون عنده في فاس فلربما يكون للأمر تفسير آخر.

بعد جلسة غذاء في إحدى مطاعم المدينة، تعرف كريم على منزل خالد وناوله بطاقة فيها عنوان الشركة ورقم هاتفه الشخصي، وأوصاه خيرا ببرهوم. وقبل الافتراق ناوله خالد ألفي درهم معتذرا عن الخطأ فامتنع كريم إلا أنه لم يجد بدا أمام إصرار خالد المدعوم بالأيمان المغلظة وهو يقول:

-دعني وبرهوم حتى نلقى الله عز وجل فيحكم بيننا.

في المساء اتصل خالد هاتفيا ببرهوم، وقدم له نفسه ثم سأله مباشرة عن الأمانة التي أوصاه بها، قبل سنتين، ليوصلها إلى كريم فنكر الأمر جملة وتفصيلا:

- اسمع أخي الحبيب أنا لا علم لي بهذا الموضوع، وأرجو أن تنسى هذا الرقم ولا تتصل بي بعد اليوم.

رد خالد في غضب:

- اسمع برهوم لنا لقاء أمام الله عز وجل فخير لك أن تتحلل من مظلمتك في الدنيا قبل يوم العرض.

وبكل حدة وبرودة رد برهوم:

- يا خويلد إن شئت اقتسمناها معا أنا ألف وأنت ألف، دون أن نفقد صداقة أخينا كريم.

استوثق خالد من خيانة برهوم الذي ذكر سهوا قيمة الأمانة بالتحديد دون أن يكون خالد قد فصل الحديث عنها في الهاتف ولم يذكرها إلا باسم الأمانة أو (الفلوس)، فقال بإصرار:

- بعت نفسك رخيصا يا برهوم.. ولنا لقاء أمام رب العباد.

رد بكل وقاحة:

- يا خويلد لنا لقاء.. (وقطع الاتصال).

**********

تداخلت المآسي مع بعضها في مشوار يلتهب صراعات حول قضايا السياسة والتغيير، والتربية والتعليم، وجرائم النصب والاحتيال، والخوف والخرافة، والطمع والنفاق.. وفهم خالد أن الحياة مسرح تتصارع فيه قيم الخير المطلق وقيم الشر الذي ارتدى لباس الطهر والصفاء. ولم يعد للطيبين مجال للمناورة أمام دورة الحياة التي بنيت على المصالح والتفاهات.. فصارت الأحزاب بدائل مصغرة

للديكتاتوريات، ونسخا باهتة لأشباه المناضلين تفرخ الجمود والتبعية وتحارب العقل والمنطق والنضج السياسي والثقافي.. يشاركها في ذلك تعليم لم يتحرر من الحسابات الضيقة والبرامج الرديئة والصراعات الذاتية المأزومة.. تعليم يغيب أي أثر له وسط الحياة التي امتلأت بالنصابين والمحتالين والمنافقين ويتوارى العقل والعلم وتسود الخرافة.. وتشتد آلام النفس حسرة وأسى في لحظات تتعمق فيها الجراح وتختلط المفاهيم.. عالم مظلم وقاتم يسير فيه الناس نحو المجهول ليتداووا من الآلام بالآلام. مشوار استعاد فيه خالد جزءا من ذاكرته حين أقلته الحافلة وهي تخترق به جبال الأطلس؛ فتذكر مقاطع من أغنية موعود عن الحيرة والخوف، عن الأماني والأحزان والقلب المشطور بين الفرح والقلق والعذاب.

تذكر كيف قذفت به الأقدار إلى الجنوب ليتعلم ويفهم.. فعرف أناسا أطيب من الطيب، وأصفى من الصفاء، احتضنوه فأحبوه وأحبهم وعاش على ذِكراهم، فصارع القلق والحيرة والعذاب وتأهب للعودة مشمولا بكرمهم وصداقتهم، وهو لا يدري أكان الانتقال -الذي جاء بعد ثماني سنوات من العمل- بتدخل من مسقط الطائرات أم أنه أحد أقداره الجديدة مع مشوار جديد، ربما تزداد فيه الحيرة، وتتضخم

الآهات وتتعمق الجراح.. فهو لا يتوقع مع هذه الأجواء المختلة أن تصفو له المشارب وتحلو له الحياة.

ولعلها تكون لحظة انفلات أو نقطة نظام في مسار المشوار.

نقطة نظام بدأت بالتعرف على زيكا والعياشي، والشلة القديمة من مخلفات زمن القهر والعنف والإرهاب الفكري في الجامعة، ثم اتسعت لتغطي الجامعة والمشوار.. ولتعود من جديد إلى لحظة رسم الخطوط الحمر في بناء العلاقات.

- 3 -

## عود على بدء

في المقهى المحاذي للسوق وسط ضجيج الشاحنات والباعة، وحركة العربات، وغبار الصيف، ورائحة السمك المشوي التي تملأ الفضاء مصحوبة عبر مكبرات الصوت بأصوات بائعي العقاقير الفلاحية والأواني والأعشاب الطبية.. وصيحات أصحاب سيارات النقل وحافلاته.. في هذا المقهى تعرف خالد على العياشي وزيكا بعد أن دله النادل عليهما وتعرف على بعض الوجوه القديمة من زمن الجامعة.. ولكنه آثر كما تعلم ذلك من تجربته مع مسقط الطائرات أن يهمل ما يسبب له صداع الرأس، متظاهرا بالتناسي، ومعللا ذلك بطول الزمن ومرور الأيام.. ومستثنيا منهم جميعا الحارس العام العياشي الذي عاشره في طفولته ولا يمكنه التنكر له. ولكنهم جميعا أكدوا معرفتهم بخالد مع الغمز واللمز. فكان الاستقبال يتراوح بين الترحيب والفتور، لينهي المدير زيكا اللقاء بتحديد معالم المرحلة الجديدة من المسار حين جذبه من كم قميصه قائلا:

_ ... يجب أن تعلم أن العمل في المؤسسة لا تحكمه العلاقات الشخصية.. فلابد أن تثبت قدرتك وتفوقك... **وشيء مهم هو الاحترام**. فالناس هنا لا يرحمون من يخطئ في حقهم.

سطر خالد بالخط العريض على الشطر الثاني من الكلام وعرف أن مصطلح الاحترام يتجاوز مفهومه اللغوي إلى دلالة خاصة ترتبط بالماضي المسكوت عنه والحاضر المبجل.. وسيعرف فيما بعد أن الاحترام هو الرضوخ والتبعية التي يكره حتى الحديث عنها. فهم المقصود، وانصرف يتجول في السوق ويستطلع المنطقة، ويبحث عن بيت للكراء وهو يستعيد صورا من ذكريات الطفولة والجوار في علاقته مع المدير والحارس العام ويستحضر صراعاته في الجامعة ومواقفه من العنف الفصائلي.. ثم يستعد لجولة قادمة من الصراع في ساحة مختلفة وأجواء متغيرة تستهدف وجوده، وتستمد استمراريتها وعنفها من زمن الطفولة والشباب.

زار خالد المؤسسة الجديدة، فوجد تصميمها شبيها بموقع المنطقة التي لها منفذ واحد يمر فوق قنطرة حتى يصل إلى مدخلها، فتتوسع على شكل زائدة دودية وسط الجبال، فكذلك تتمدد المؤسسة بمدخل صغير محصور بين الإدارة وسور الداخلية تم تنفتح على جناحين

وملعبين رياضيين لتنتهي بسور ينغلق معه شكل الزائدة، كما كان يحلو لخالد أن يصفها.

**********

في مدخل المؤسسة وأمام باب الإدارة يقف المدير مزهوا بنفسه وسط الأساتذة.. الكلمة كلمته؛ لا يسبق بكلام ولا يقاطع بحديث والجميع يتجنب ما يقلقه وما لا يعجبه. ولا يقاربه في صدارة الموقف إلا الحارس العام الذي لا يترك فرصة دون الإشادة بالمدير والحديث عن نفسه وإنجازاته في العمل الإداري، فيندهش الأساتذة لبراعته ومعرفته..

ظل خالد صامتا يتابع مشاهد الخنوع ويصنف الموظفين حسب أدوارهم في مسرحية التزلف، ثم انسحب إلى قاعة الأساتذة ليجد الأستاذ القربالي في حديث هامس مع الأستاذ دودو، ثم ارتفع الصوت فجأة لحظة اقتراب خالد منهما، فشاركهما الحديث حول الدخول المدرسي والعمل النقابي ومستجدات الساحة النضالية.. فأحس ببرودة النقاش وضعف التجاوب في الحوار وانزوى بعيدا عنهما دون تعليق ثم انسحب لمتابعة المسرحية الاستعراضية للمدير.

أحس أن الأجواء الجديدة تختلف تماما عن أجواء الجنوب وعلاقاته، وأن التكتلات هنا تعتمد مقاييس جديدة أهمها المصلحة والعصبية ثم

التقارب الحزبي. فقرر التعامل خارج هذه التشكيلات دون إحراج أحد، أو الدخول في دوامة التصفيق والدوران في فلك الإدارة.

# المؤامرة

-1-

# وكان ما كان

يعج السوق بباعة البضائع المختلفة والمتنوعة، كما يعج بالغبار وأصوات مكبرات الصوت ودخان شي السمك واللحم.. وتتزاحم فيه الدواب والعربات مع الراجلين والكلاب التي ضلت عن أصحابها.. ولا تكاد تمر من موقع إلى آخر دون أن تصدم أو تصطدم، أو تدفعك عربة أو حامل أثقال.. لضيق موقع السوق وكثرة الدواوير التي تحج إليه كل أسبوع، كما لا يخلو من فرجة بعد فرجة حين يتوقف السير ويتدافع الناس وتشرئب الأعناق إلى معركة بين الباعة، أو سائقي سيارات النقل السري والنقل المرخص، وأحيانا بن المتسوقين الذين بدأوا الصراع في الدوار أو المقهى وأصروا على إتمامه في السوق.. فأرض المعركة مفتوحة ووقتها غير محدد وأحسنها ما كان في مشهد عام ليتداول الناس أخبار المنتصر والشماتة بالمهزوم.. وعادة ما تكون المعركة مادة للنقاش طيلة الأسبوع بين رواد المقاهي والمجالس العامة والخاصة لأن الفراغ في المنطقة قاتل، ولا شغل للناس غير تداول الصراعات واجترارها، وتحليل أزمات الآخرين ومشاكلهم، وترصد أخطاء بعضهم بعضا، لتزدهر النميمة، وتكون مرة أخرى سببا في صراعات جديدة.. وتدور

الدوامة التي لا تنتهي ولا تنحصر في فئة دون أخرى، ينخرط فيها المتعلم والجاهل، الموظف والعاطل.. وما ذلك إلا بسبب انحسار المنطقة وانقطاعها بين الجبال، فكلما ضاق المكان وانحسر ضاق معه العقل وضاقت الأخلاق والاهتمامات، وانشغل الناس بالتفاهات، وتفننوا في التآمر والصراع الذي يخلق لذة الاندماج ومتعة الحديث، ويلغى رتابة الهم اليومي، كما يخلق فسحة نفسية بديله عن الرؤية المحدودة والأفق المسدود.

لم يكن من السهل اليسير على خالد إدراك طبيعة الناس وسط هذا المحيط المغلق كالزائدة الدودية. فقد عاش حياته في مناطق مفتوحة مع أناس أطيب من الطيب، مشغولين بهمومهم وقضاياهم ولا وقت عندهم للتآمر والصراعات التافهة. لذلك وجد صعوبة في فهم هذا السلوك المنفلت والعلاقات البئيسة. وكان اول ما صدمه حين كان في السوق أمام الجزار هو سلوك عون الخدمة في المؤسسة الذي سلم عليه وشكا إليه ضيق الحال، وغلاء الأسعار.. فما كان من خالد إلا أن أعطاه اللحم الذي اشتراه من الجزار مع بعض النقود، ففرح العون:

- شكرا أستاذ، شكرا أستاذ، اسمع مني جيدا؛ سأحدثك بأمر هام يخصك.. فلك أعداء يخططون لقهرك وغلبتك ولو وجدوا لمحوك من وجه الأرض.

- كيف؟ ألهذا الحد؟ ومن هم؟

- (شوف أأستاذ تْهَلَّا فيّ نجيب لك الأخبار بالتفصيل) أنا سمعت المدير يقول للحارس العام لا بد من التخلص من هذا الأستاذ الجديد ولو بتكليفه بالعمل في مؤسسة أخرى...كما سمعت القربالي يقول عنك أنك عنيد ومتكبر ولا..

قاطعه خالد:

- اسمع أنا لا يهمني إلا من واجهني، وأرجوك لا تبلغني شيئا من هذا أو غيره بعد اليوم، فأنت إنسان طيب وهذه أمور تافهة لا تشغلني..

بدأت المعركة إذن وعرف موضوع الوشوشة الذي دار بين دودو والقربالي وما يخطط له زيكا والعياشي، ولكنه آثر إبعاد عون الخدمة عنه دون أن يعلق على كلامه، لأن العون بكل بساطة مع من يدفع. فلا خبر بالمجان، ومن يبيع لك يبيع لغيرك. ولم يكن يعلم أنه بإغلاق هذا

الباب قد فتح بابا آخر من الحقد خاصة عندما لقي العون مرة أخرى في السوق دون أن يمده بما أمده به من فضل سابقا.

قدر جديد تتداخل فيه أحداث الحي في الطفولة مع صراعات الشباب في الجامعة ليتحالف الخوف مع الحقد.. فزيكا والعياشي ظنوا أنهم طووا ملفاتهم القديمة بكل تعاستها وفقرها وقهرها، ورتبوا لحياة جديدة يملأها الغرور والكبرياء والتباهي والسيادة.. والقربالي يعرف جيدا قوة خالد ويذكر جيدا صراعاته ومواقفه من اليسار وفصائله في الجامعة، لذلك لا غرابة أن تستمر معركة الإقصاء، وإثبات الذات في هذا الفضاء المعزول مع عقول مغلقة انتهت صلتها بالوعي والمعرفة وتعايشت مع المكائد والمؤامرات..

دق الجرس واتجه التلاميذ إلى قاعات الدرس، فدخل الأستاذ خالد مع تلاميذه القسم، فإذا بأحدهم يقف ليواجه الأستاذ بجرأة نادرة:

- أستاذ، الشاعر الذي حدثتنا عنه في مدخل المجزوءة وسجلناه في الملخص لا وجود له.

- اجلس مكانك ولا تخرج آخر الحصة حتى تذكرني بالموضوع..

استغرب خالد -وهو يلقي الدرس الجديد- الجرأة التي واجهه بها التلميذ ومن يكون قد دفعه وأكد له هذه المعلومة.. فلا يمكن للتلميذ أن يدخل في نقاش معرفي من هذا المستوى وبهذا اليقين وبهذه السهولة.

في آخر الحصة استدعى التلميذ وطلب منه انتظاره مساءً في المكتبة. فجاءه بكتاب "اتجاهات الشعر" لمصطفى هدارة وحدد له بعض الصفحات لتلخيصها وقراءة الملخص صباحا في القسم أمام زملائه ليستفيد الجميع.

في الصباح دخل جميع التلاميذ القسم وتوقف التلميذ بالباب ينتظر أستاذه ليعتذر عن تصرفه واندفاعه:

- أستاذ لو سمحت الكتاب الذي أعطيتني يتحدث كثيرا عن الشاعر مسلم بن الوليد، ولقبه هو صريع الغواني.. اعتذر كثيرا..

- أعرف جيدا أنك مدفوع فمن أوقعك في الخطأ؟

- اعذرني أستاذي..

- كما واجهتني بجرأة يجب أن تعترف بجرأة ولا تخف أحدا..

عرف منه بعد إلحاح أنه التقى الأستاذ القربالي بباب المؤسسة فسأله عن خربقات الأستاذ الجديد وطلب منه دفتر المادة فوقع بصره على اسم الشاعر ضمن مدخل الدرس فضحك مستهزئا:

- هههههه.. ماذا يدرسكم؟ ما هذه الخربقات؟ هذا الشاعر غير موجود. يجب أن تحتجوا عليه.

سهم أول في معركة الوجود ارتد سريعا على صاحبه بنفس القوة وبنفس السرعة حين جلس خالد في المقهى مع مجموعة من الأساتذة وإلى جنبه غريمه القربالي، فدار الحديث عن مشكل بين أحد التلاميذ وأستاذه، فتدخل القربالي ليسجل تذمره من سلوك بعض التلاميذ هذه السنة. إلا أن خالدا صحح وأعاد توجيه السهم إلى صاحبه بحكمة ومنطق قاتل:

- .. نحن من نفسد أخلاق التلاميذ حين نوظفهم في الصراعات.. فقد عمد أحد الأساتذة إلى دفع تلاميذي للاحتجاج عليّ بعد أن أخذ دفتر أحدهم ولاحظ أني أدرسهم خربقات وأذكر شاعرا لا وجود له.. وقد جئت تلاميذي بالمراجع التي تبين أن صاحب الملاحظة حمار وجاهل والأولى به أن يدخل معهم الفصل ويقبل يدي الأستاذ خالد ليتعلم قبل

أن يتكلم. ولو أن التلميذ أخبرني باسم الأستاذ الحمار لصفعته أمام الجمع...

ارتبك القربالي واحمر وجهه وعلق باضطراب واضح وهو يسف سجارته:

- لا يا أستاذ خالد، لا تصدق التلاميذ، فهم يحاولون خلق الصراع بين الأساتذة ولربما يكون قد دفعهم إلى ذلك بعض الطلبة العاطلين.

أبدى خالد اقتناعه برأي غريمه.. وعرف أن المعركة ستكبر وتتخذ أبعادا غير متوقعة، سيما وأن الجرح اتسع الآن أكثر والإحساس بالهزيمة سيدفع لا محالة إلى انتقام موجع وأليم.

** ** **

جاءت من النيابة مذكرة خاصة بأسماء المناصب الإدارية الشاغرة في الدائرة النيابية، فوجد زيكا فرصته للتخلص من خالد نهائيا، فأرسل العون لاستدعائه على وجه السرعة، وهو ما استغربه خالد إلا أن العون استغل الفرصة لعقد الصفقة من جديد:

- أنت يا أستاذ من رفض التعاون.. فلدي أخبار عن كل خططهم..

لم يعره خالد اهتماما واتجه صوب مكتب المدير ليجده مع العياشي وقد ظهرت على وجيهما علامات البشر والفرح فقام إليه العياشي:

- هذه فرصتك يا أستاذ خالد تفضل بالجلوس

وتابع المدير:

- ستصبح رجل إدارة مثلنا بعيدا عن القسم والتزاماته ومشاكله

- هكذا دفعة واحدة ومن دون مقدمات.. لم أفهم شيئا

- لا داعي لأن تفهم.. كل شيء قد رتبناه مع النيابة ففي الجهة الغربية توجد مؤسسة بدون حارس عام وقد رشحناك للمنصب بالاتفاق مع أصدقائنا في النيابة.. وهذا الطلب ينقصه توقيعك فقط

تردد خالد في التوقيع وطلب مهلة لزيارة الجهة والمؤسسة ليتخذ قراره النهائي. إلا أن المدير استعجله:

- أستاذ خالد أنا الآن ذاهب إلى النيابة والوقت ضيق. وقع لي أولا وسأمنحك غدا رخصة خاصة لتذهب إلى المنطقة، وإذا لم تعجبك فلا تذهب.. أنت حر ومخير.

فرح زيكا والعياشي بتوقيع خالد وعلى جناح السرعة طارا بالطلب إلى النيابة. وبعد يومين جاء قرار التكليف وتم استدعاء خالد من القسم

مباشرة ليتسلم نسخة منه ويرحل في ظرف أربع وعشرين ساعة لتسلم مهامه الجديدة. رفض تسلم القرار وقفل راجعا إلى قسمه فوقف المدير في وجهه:

- لم يعد لك عمل عندي في هذه المؤسسة، منذ اليوم أنت محسوب على مؤسسة التكليف تبعا لطلبك السابق.

وتدخل القربالي الذي حضر لتوه من قاعة الأساتذة:

- لم يعد لك اختيار يا صديقي بعد أن تقدمت أنت شخصيا بالطلب.

أحس خالد أن الحبل قد استدار على عنقه بإحكام، وأن مجال المناورة ضيق جدا، فخرج من المؤسسة دون أن يتسلم قرار التكليف.. واتجه إلى مكتب البريد، واتصل عبر الهاتف بأحد أصدقائه العاملين في الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين بأكادير وعرض عليه المشكل، فنصحه بكتابة طلب تنازل عن التكليف بالمهمة، ووضعه مباشرة في مكتب الشؤون التربوية بالنيابة مع نسخة موجهة إلى النائب الإقليمي.

في الغد اتصلت النيابة بالمدير وأخبروه عن طلب التنازل فثارت ثائرته وأرعد وأزبد ووقف في وجه خالد يهدد:

- ستذهب والسيف على عنقك وستعرف من أكون.

- سيفك حاف وعنقي من حديد..

تولى زيكا غاضبا.. والعياشي يحاول أن يهدئ من روعه.. بينما انصرف خالد إلى قاعة الأساتذة في انتظار انتهاء فترة الاستراحة للالتحاق بقسمه من جديد.

لم يستسغ زيكا والعياشي هذه الهزيمة فعقدا لقاء بمشاركة القربالي الذي وجدها فرصة ذهبية للانتقام وأخذ الثأر من الإهانة التي تلقاها في المقهى بطريقة ذكية ومدروسة.. فأشار إلى أنه اتصل بالتلاميذ فوجدهم يشتكون من الأستاذ، كما أنه اطلع على دفاترهم فوجد خلطا في الدروس وعملا عشوائيا غير منظم، مما يستوجب استدعاء المفتش لمتابعة عمل الأستاذ.

وجد زيكا الطريق مفتوحا من جديد للانتقام وكسر شوكة خالد وجرأته وغروره.. فاتصل بالمفتش وأطلعه على الوضع الكارثي لعمل الأستاذ وأن التلاميذ وأولياءهم يشتكون منه، وطالبه بالتدخل العاجل والفوري.

كان المفتش قد اطلع سابقا على ملف الأستاذ فلم يجد ما يبرر تدخل المدير بهذه القوة والتحامل الغريب؛ فالأستاذ حاصل على شواهد كلها بامتياز وتفوق ويحمل شهادة عليا بامتياز في تخصصه، وشهادة

للأهلية التربوية من المدرسة العليا للأساتذة، وكل تقارير المفتش السابق تنويه بجدية الأستاذ وامتيازه.. فأحس أن تدخل المدير بهذه الطريقة الفجة وتهويله للأمر لا يبعث على الارتياح خاصة وأن له سوابق يتداولها عنه الجميع.. فاكتفى بدعوة الأساتذة إلى لقاء تربوي يكون فاتحة للقاء مع الأستاذ والتعرف عليه أكثر. وكانت المفاجأة أثناء اللقاء أن المفتش يعرف خالدا أيام كان طالبا ويعرف مشاركاته وأنشطته.. وزادت مداخلاته أثناء اللقاء من تأكيد الصورة الجيدة لنضج الأستاذ. فأهمل المفتش الموضوع دون أن يخبر خالدا بشيء من ذلك.

ظل زيكا يتابع عمل خالد خطوة خطوة عله يتصيد أية هفوة يعزز بها موقفه من الأستاذ، فلاحظ أن نقط الفرض الأول هزيلة ولم يحصل على المعدل إلا القلة القليلة منهم، فاستدعى خالدا مرة أخرى للاحتجاج:

- ما هذه النقط يا أستاذ؟

- نقط الفرض الأول في البكالوريا تكون ضعيفة لأن التلاميذ لم يستأنسوا بعد بمناهج التحليل.

- المفروض أن تعكس النقط عمل الأستاذ. وإذا كانت نقط الفرض ضعيفة فيجب إعادة الفرض..

- هذه أمور تناقش مع المفتش، ولا أسمح لأي كان أن يتدخل في عملي.

وانصرف دون استئذان ليزيد من غضب زيكا الذي جلس يدبج تقريرا في الموضوع وينتظر العياشي للتشاور وإعداد خطة بالتنسيق مع دودو والقربالي. وتم اللقاء الرباعي فاقترح دودو تقديم دروس الدعم الإضافية لتلاميذ الأستاذ خالد.

لم يُستشر خالد، ولم تعط له فرصة لإبداء رأيه أو التعليق على الاقتراح، وأصبح القسم برأسين.. وبدأ التخريب الممنهج لعمل الأستاذ المسؤول. تخريب قد يكون مقصودا أو غير مقصود لأن تجربة الأستاذ دودو مع مقرر البكالوريا كانت في بدايتها ولم تنضج بعد، فالداعم يحتاج إلى دعم. تابعت الإدارة العملية بخبث لتثبت ضعف الأستاذ خالد وعجزه التربوي.. وهو ما لم يدركه خالد فتصرف بحسن نية وحاول إقناع تلاميذه بضرورة متابعة دروس الدعم ليتمكنوا من التحضير الجيد للامتحان.. غير أنهم توقفوا عن المتابعة بعد الحصة الثانية مباشرة وعللوا ذلك بأنهم لا يفهمون شيئا مما يقوله الأستاذ دودو.

اقتربت السنة من نهايتها دون أن يزور المفتش المؤسسة، أو يحدث أي تغيير في العلاقة المتشنجة بين خالد والرباعي المرح. وظل زيكا يحتج في كل لقاء على نقط الأستاذ خالد وحده دون بقية الأساتذة ليشوه صورته ويحضر للضربة المتوقعة.

ومرت الامتحانات وظهرت نتائج الدورة الأولى فكانت النتائج عادية لا تسترعي الانتباه، ونجح أكثر من نصف القسم ولم يبق إلا تسعة تلاميذ مؤهلين للدورة الثانية من أصل ستة وعشرين تلميذا، فقام المدير بعملية فحص لمن كان بإمكانهم النجاح لو أن نقط الفروض تمت مراجعتها، واستنتج أن سبب رسوبهم هو تعنت الأستاذ خالد، فيما مدح ما قام به الأستاذ دودو الذي تمكن الناجحون من النجاح بفضل جهوده في دروس الدعم. فعلق خالد متهكما:

- ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾

** ** **

جاءت نتائج الدورة الثانية -وكان المصحح متشددا حتى أن النقط جاءت بفواصل جزئية دقيقة غير معهودة في المواد الأدبية– وقامت قيامة زيكا، وقلب الطبق وما فيه على رأس خالد، وحمله مسؤولية

نتائج القسم الأدبي الوحيد في المؤسسة، وتغافل عن عدد الناجحين في مقابل النتائج الهزيلة للسنة الماضية مع القربالي الذي استغل الفرصة صحبة دودو وخرجوا إلى السوق والمقهى ليحملوا الأستاذ الجديد مسؤولية النتائج الضعيفة!! ورسوب التلاميذ!! وتم نشر الإشاعة ولاكتها الألسنة الجاهلة في المقاهي والتجمعات.. ودارت الدنيا بخالد وفقد جرأته وتوازنه ومنطقه.. ولم يكن أمامه إلا الاتصال بمفتش المادة الذي أكد له أن النتائج منطقية ولا يتحمل الأستاذ فيها أية مسؤولية، وهي أفضل من النتائج الهزيلة للسنة الماضية، ثم حدثه عن اتصالات المدير المتكررة طول السنة.. فاطمأن خالد وبدأ يسترجع ذاته ويتخلص من أثر الدعاية التي يقودها دودو والقربالي من جهة بدوافع ايديولوجية وتنافسية تستهدف إلغاء المنافس القوي داخل المؤسسة، وزيكا والعياشي من جهة أخرى بدافع التخلص من صندوق باندورا الذي قد ينفجر في أي لحظة فيظهر الماضي المسكوت عنه بكل تفاصيله.. فكان العياشي المتنكر لكل تاريخه الأسري والخائف من معلومات خالد عن تفاصيله الأسرية ونشأته القلقة المضطربة، كان ذكيا في التخطيط وتوجيه الصراع خفية مع الحفاظ على شعرة معاوية مع خالد. بينما كان زيكا غبيا في تصرفه فدفعته عجرفته وتكبره إلى استدراج خالد للصراع والمواجهة المباشرة. إلا أن أخلاق خالد منعته

من النزول إلى الحضيض، والمشاركة في معركة غير أخلاقية تستحضر الماضي الهش والبئيس لخصمه المتباهي بالانتساب إلى المجد التليد والشرف الرفيع والأسطورة المرضية.. وقد منحه الفراغ الإداري وعلاقاته النقابية فرصة للانتقال من السلك الإعدادي إلى التكليف بمهمة مدير في السلك الثانوي فانتفش وانتفخ، وظهر واستعلى على أساتذة الثانوي محققا ذاته عبر سلطة وهمية وتاريخ لا يعرف حقيقته إلا خالد، لذلك حاول إلغاءه بهذه الطريقة الفجة والعقيمة، ظنا منه أن السلطة والضغط سيدفعان خالدا إلى الصمت والرضوخ. لكن خالدا عاد بعد هذه الرجة القوية لينتقم بطريقته الخاصة فكان كلما تماهى زيكا في الحديث عن المجد القديم، حدجه بنظرة ساخرة تعريه وتنزله من السماء إلى الحضيض.. فبدأ يتجنبه ويستلطفه.

وبانطلاق الموسم الجديد التحق الأستاذ سليمان للعمل بالمؤسسة ناظرا، فكان قانونيا في تعامله بعيدا كل البعد عن مظاهر الاستعلاء واستعمال سياسة العصا والجزرة، وتقريب الصاحب وإبعاد المخالف.. وهو ما جعل زيكا والعياشي يشعران ببداية سحب البساط منهما وانتهاء سلطتهما المباشرة على العاملين في المؤسسة. فالعنصر الجديد كسر التوازنات القائمة وخاصة حين انضم إليه خالد، وعمل جهده على مساعدته في مهامه فأصبحا صديقين، يجمعهما محاربة التسيير

العشوائي للمؤسسة، واستبدال العلاقات بالقانون، فبدأت تظهر أصوات كانت خافتة ووجد خالد من يسنده ويحميه وبدأ يتجرأ على مناوئيه ويكتسب خبرة في العمل الإداري مع صاحبه سليمان.

ولم يجد زيكا والعياشي بدا من الهروب عبر الانتقال، قبل أن يستفحل التمرد وتكبر المعارضة وينهار سقف الأبهة والشموخ..

جاء خبر الانتقال بردا وسلاما على خالد، فأحس بنهاية الغمة وزوال المحنة، واستبشر خيرا بقادم الأيام، وأبدى كذلك بعض الأساتذة المقموعين فرحتهم، وجاء العون يزف البشرى لخالد، فتعمد خالد التمثل بحكاية أبي أيوب مع العجوز:

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

وما كان من العون إلا أن نقلها لزيكا والعياشي مباشرة وبطريقته الخاصة:

- صاحبكما خالد فرح بانتقالكما ويقول شامتا: مشى الحمار وأمه.. لا أرجعهم الله.

فجاء زيكا مسرعا إلى قاعة الأساتذة ليرد بغضب على الشماتة:

- أستاذ خالد. احترم نفسك وإلا..

قاطعه خالد:

- لو ترك القطا لنام

لم يفهم زيكا الكلام ولا معنى "القطا" فقال:

- معي لا ينفعك الشعر (ولا هم يحزنون).. ستعرف من أنا.

ضحك خالد من ثقافة زيكا وخلطه بين المثل والشعر ورد متهكما:

- ملاك جريح سقط من السماء على الأرض

رد زيكا معتدا بنفسه ومتفاصحا لينفي عنه صفة الحمار كما سمعها من العون:

- هذا فرس عربي أصيل شامخ لا يقهر..

زادت سخرية خالد وقال قبل أن ينصرف متعمدا استبدال ألفاظ البيت الشعري ليزيد من إذلال الخصم وتعتيم المعنى:

- إذا بدت الأتان بزي خيل  تكشَّف أمرها عند النهيق

** ** **

-2-

# وسقط المُسقِط

تشتد الحرارة صيفا في فاس، فيفر الناس إلى شواطئ الشمال أو مرتفعات الأطلس، فيحلو المقام في مدينتي إيموزار وإفران حيث الغابة والسواقي والحدائق الجميلة.. والمنازل على الطراز الأوروبي القديم، والجو المعتدل المنعش، والبحيرات المحفوفة بالخضرة الدائمة، تلهو فيها الطيور بمختلف أنواعها وأشكالها.. جنة على الأرض تنتشلك من جحيم صيف فاس وحرها، وتذهب بك بعيدا فتنتعش الروح وتحلو الحياة، وتجد العائلات الفاسية فيها مجالا للراحة والمتعة، فيما يتخذها الشباب مواقع للتخييم.. فتصفو النفس وتتجدد الآمال بعد عناء طويل وصراعات مجانية يخسر فيها الجميع صفاء النفس وراحة البال والتذوق الجميل للحياة، فيضيع العمر وراء وهم الغلبة والانتصار، وتسود الأحقاد والكراهية في عالم كان الأولى أن نملأه بالحب والإخاء.

صباح منعش وجميل وسط حدائق إفران، التقى فيه خالد بطارق بن المرحوم الحاج أحمد بنسلام، ابن التاجر الذي أخذ مسقط الطائرات ماله احتيالا وفر إلى الجنوب. كان طارق يدرس مع خالد في نفس

الثانوية وبعد حصوله على الباكالوريا سافر إلى فرنسا، وكان ذلك آخر العهد بينهما، ثم التقيا بعد سنين من الفراق والغربة:

- أهلا خلدون كيف حالك؟ أما زلت حيا أيها الشقي؟

- وما زال العصفور يغني يا طارق..

- شاعر كعهدي بك.. أين أخذتك الأيام؟

- لو أخذتني الأيام لركبت الزمان، ولكنها الهموم يا طارق..

وفي جو من التعارف المرح عرف خالد أن صديقه تخرج مهندسا من إحدى الجامعات الفرنسية، وعاد إلى المغرب، وفتح مكتبا في مدينة الدار البيضاء وهو متزوج من أسرة سوسية من مدينة أكادير.

مرة أخرى تتشابك الأقدار ويتقارب الخصوم.. مرة أخرى يحتار خالد كيف يواجه زميله القديم في الدراسة، هل يخبره بما عنده من معلومات عن قاتل أبيه؟ أم يلتزم بقانون مسقط الطائرات (ما رأيتك وما رأيتني وما سمعتك وما سمعتني)؟ تشابكت الهموم في طريقك يا خالد وقدرك أن تنتقل من مشوار إلى مشوار:

- جئت لأرتاح من زيكا والعياشي من القربالي ودودو.. فأفسد عليّ مسقط الطائرات خلوتي وعطلتي.. اللعنة عليك يا حاج اسْعيد ما عدت

أعرف هل تطاردني أم أطاردك؟ أم هي أقدار تسير بتقدير القادر وتنسج الأحداث وفق خطة مرسومة لنهاية غير متوقعة.. فاللهم لطفك ورحمتك.

تبادل الصديقان عبارات المجاملة وهما يرتشفان قهوة الصباح وعرف طارق أن زميله كان يعمل في منطقة سوس. وهو يعتزم هذا الصيف زيارة المنطقة بدعوة من صديقه أحمد الذي أصر على وضع داره في مدينة أكادير رهن إشارته لقضاء جزء من عطلته الصيفية. فاعترض طارق بقوة وأصر على الاستضافة رغم اعتذار خالد:

- سي خالد.. لدي منزل قريب من شاطئ أنزا بضواحي أكادير بعيدا عن صخب المدينة، لا أستعمله كثيرا مرحبا بك وبأسرتك، وهذا رقم هاتفي.

- شكرا سي طارق، حين أصل المدينة سأتصل بك.

شيء غريب يحز في النفس. كيف يفتح طارق بابه لخالد فيما يظل خالد صامتا يذبحه كرم صديقه وصفاء نفسه؟ ظل موزعا بين الوفاء والخوف.. ألم يهدده المسقط بجار ومجرور...؟؟ التهمة ثقيلة والوفاء واجب، والحق مبدأ، والساكت شيطان أخرس.. هذه جريمة قتل.. أخذت الحيرة خالدا بعيدا في كل الاتجاهات وفضل ألا يتكلم في هذا

الأمر حتى يلتقي بطارق في أكادير، وفي نفس الوقت يكون قد أعطى لنفسه مهلة للتفكير والتخطيط.

** ** **

بداية شهر غشت اشتدت الحرارة في فاس، ومعها اشتد الحنين إلى الجنوب وأصبح شاطئ أكادير يلوح من بعيد.. فتردد خالد في الذهاب حتى لا يورط نفسه في مشكل جديد ينضاف إلى هموم السنوات الأربعة الماضية، لكنه حسم أمره فالسفر أصبح ضرورة والتخلص من مسقط الطائرات واجب إنساني يحتمه الوفاء وتفرضه القيم والمبادئ.. والخطة جاهزة لا يذكر فيها خالد ولا يظهر له أثر.. ولابد أن تكون حركاته محسوبة لينهي المهمة بأمان.. سيلغي زيارته إلى تزنيت. ولن يختلط بالناس في الأماكن العامة.. حتى لا يلتقي بأحد من معارف مسقط الطائرات. ولتكن الرحلة خلوة خارج المدينة في شاطئ أنزا الجميل والهادئ ليستعيد جزءا من شخصيته المفقودة في الصراع مع زيكا وجوقته، وينسى هموم المنطقة النائية المعزولة الباحثة عن وجودها بخلق المشاكل وافتعال الأزمات.. وهو ما لم يتعود عليه، ولا كان يجول بخاطره، حتى شاهد فيها الشر يسير بين الناس على قدميه فاختلت كل مقاييسه التي تعلمها وتربى عليها.. عرف الشر في أكثر

الناس مؤقتا ومرحليا أو محصورا في فئة قليلة، وحين يقابل بالخير ينفجر حبا ورحمة. أما ما عرفه وعايشه في هذه الزائدة الدودية، فشر ممتد وعام، إذا تنازلت له استقوى وإذا قابلته بالخير تضاعف وانتفش وتلذذ بالنصر.

عادت الذكريات الجميلة بخالد وهو ينزل بمدينة أكادير إلى سنواته التي قضاها في الجنوب رفقة الحاج عيسى وحسن وأحمد.. واشتم رائحة البحر المنعشة تختلط برائحة الذكريات وهي تتسلل إلى أعماق نفسه لتنعش روحه من جديد، فكادت الدموع تغلبه وهو يسترجع أيام الذهاب والإياب من وإلى أكادير، ومعها يسترجع براءة العيش بين الجنوبيين وما افتقده من طلاقة الوجه وبشاشة الروح وصفاء النوايا.. أيامٌ لم يعرف قيمتها حتى غاب عنها وغابت عنه، فتأكد أن قيمة الشيء الجميل لا تعرف إلا بعد تجاوزه وفراقه.. وتكبر أكثر حين نتعايش مع ضده، فيملأنا الحنين، وتنقطع سبل الوصال، فلا نجد إلا الآهات تخرج مع الأنفاس الحارة لتعلن عن احتراق دورة كاملة من الزمن نجد لرمادها ألما في قلوبنا وحسرة في نفوسنا..

اتصل بالمهندس طارق -الذي أصر أيما إصرار على استضافته أثناء لقائهما في مدينة إفران- ليخبره بوصوله إلى أكادير فرحب به وجاء

مسرعا، ففوجئ بخالد وحده وكان يتوقع أن تكون معه أسرته، إلا أن خالدا اعتذر عن اصطحابهم معه، فقد جاء لقضاء مهمة خاصة تستوجب الخفة والسرعة فعلق طارق اثناء جلسة الفطور في مقهى جميل يطل على الشاطئ الواسع الهادئ:

- مهمة خاصة! أية مهمة يا أستاذ نحن في عطلة..

- قدري يا مهندس أن أصارع دون توقف وأن أكون جزءا من تصميم التهيئة في حياتك..

- أيها الشقي عدت تتكلم بالألغاز.. كلمني بالواضح أنا لا أفهم الشعر

- ما جئت إليك أضرب أكباد الحافلات إلا من اجل الوضوح

- لعل هواء أكادير أحيى فيك ذكريات حب قديم فأصبحت تهذي

- نعم أخي طارق، أحتاج إلى يومين من الراحة في خلوة قد تكون شفائي، قبل أن أحدثك عن حبي وهمي الذي شقيت به طوال سنوات من غياب بعضنا عن بعض..

استلم خالد المنزل من صديقه طارق وأخلد إلى نوم عميق فلم يستيقظ إلا قبيل الغروب بقليل، فقد أتعبه السفر وارهقته الهموم فأطل من الشرفة يتأمل منظر الغروب في لحظة تنطفئ فيها الشمس

وسط البحر، وتهرب الطيور إلى أعشاشها تختبئ من هول الليل وما يحمله من آلام تؤجج الذكريات.. فيسهر المهمومون مع طواحين الهواء يقاتلون الوهم المتجدد لحظة لحظة..

بعد يومين تلقى خالد اتصالا من المهندس طارق يعتذر له عن اللقاء الذي كان مبرمجا بينهما بسبب بعض الانشغالات العائلية وأنه سيتصل به فور فراغه من ترتيبات خاصة لم تكن متوقعة.

كان خالد في حاجة إلى هذه الخلوة مع النفس في البحر، يسترجع صفاءه ويتخلص من زحمة العلاقات والدسائس والمكائد.. فتظهر الهموم صغيرة ضئيلة، ويحس أن الحياة أكبر من هذه الانشغالات الحقيرة والصراعات التافهة حول قضايا وهمية لا تجد لها مكانا إلا مع الفراغ والرتابة وغياب الوعي.

مضت أكثر من خمسة أيام دون أن يتصل المهندس فأحس خالد بشيء من القلق واضطر للاتصال به ليتفهم طبيعة انشغالاته وليفاتحه في الموضوع الذي جاء من أجله، فضرب معه موعدا للغذاء عنده في دار أصهاره بأحد الأحياء الراقية وسط أكادير.

فيلا جميلة تستقبلك بحديقتها الصغيرة وبابها الخشبي الأنيق ورخامها الصافي المفضي إلى مدخل مفروش بأرائك تتوسطها طاولة زجاجية

سميكة مزينة بمزهرية تتدفق منها أشكال من الورود والأزهار.. وعلى جانبي المدخل غرفة مغلقة وبهو كبير مفروش بأثاث تقليدي فاخر وفي إحدى جنباته يجلس شاب معاق على كرسيه المتحرك.. وهو ما أثار انتباه خالد فبدأ بتحيته وملاطفته، واستفسر صديقه طارق عن الولد فعرف منه بعد تنهيدة عميقة أنه ابن عم زوجته ثم أخذا مكانهما في البهو وهو يسترجع ويحوقل.

وهما يرتشفان الشاي حاول خالد فهم تنهيدة واسترجاع طارق:

- سِّي طارق لاحظتك مهموما بعض الشيء. خيرا إن شاء الله؟

- الحكاية طويلة سي خالد ولست أدري من أين أبدأها؟ وذلك ما شغلني هذه الأيام.. فنحن نعيش لحظات شبيهة بأحداث الأفلام المصرية..

- إلى هذا الحد؟ اعذرني فلربما زرتكم في وقت غير مناسب.

وتابع طارق كلامه دون أن ينتبه إلى اعتذار خالد:

-.. قبل أسبوعين قتلت أم هذا الولد

- لا حول ولا قوة إلا بالله. من قتلها؟

- زوجها المشؤوم.. قتلها وانتحر.

ذهل خالد وهو يتابع حكاية القتل:

-.. بعد وفاة المرحوم عم الزوجة ووالد هذا الشاب تزوجت أمه من رجل كانت تعتقد فيه الصلاح والبركة التي اشتهر بها.. حتى كان مقصدا للناس من كل مكان طلبا لبركته.. فاستولى على أملاك المرحوم عن طريق تزوير الوثائق.. ومع مرور الأيام اكتشفت أنه مشعوذ ومحتال فاتصلت سرا بصهري والد زوجتي وأخو المرحوم، فاستوثق من التزوير وتابعه في المحكمة التي قضت -قبل شهر- بفساد الوثائق مع متابعة المتهم بالواقعة وتهمة الاستلاء على أملاك الغير. فتأجج الصراع بينه وبين زوجته وعمد إلى قتلها بطلقات من بندقية الصيد ثم انتحر بطلقة أخرى.

استغرب خالد من الحكاية واستفزته كلمة مشعوذ ومحتال وقفزت إلى ذهنه صورة مسقط الطائرات وهو يحدثه عن زوجته الثالثة وابنها الذي عرف من الخادم أنه معاق وله أخت تصغره بسنتين، فوضع رأسه وسط يده اليمنى واتكأ بالأخرى على ركبته:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. سّي طارق أليس لهذا الولد أخت تصغره بسنتين؟

أجاب طارق مستغربا:

- بلى! واسمها بثينة.

- هذا المشعوذ اسمه الحاج اسْعيد الزْناتي

زاد استغراب المهندس طارق واعتدل في جلسته:

- كيف. أتعرفه؟

دخل خالد في صمت عميق وما عاد يحس بوجود صاحبه.. ثم انتبه فجأة لطارق وهو يتساءل عن سر هذا الصمت والوجوم الذي ظهر سريعا على وجه ضيفه. لكن خالدا استدرك وحاول أن يؤجل الموضوع حتى يستجمع أفكاره المشتتة من هول المفاجأة وتقاطع الأحداث وغرابة الحكاية. فقال:

- سمعت عنه كثيرا عندما كنت أعمل في مدينة تزنيت قبل أربع سنوات.

شيء ما لم يفهمه طارق، ولم يقنعه جواب صاحبه المرتبك والمنفعل مع الحدث.. ولكن واجب الضيافة أولى من إحراج الضيف، فللكلام بقية بعد الغذاء.

كان الحدث أكبر من أن يلخصه خالد لصاحبه -وهما في جلسة مساء أمام أمواج شاطئ أنزا الهادئة- وأن يعرفه على قاتل أبيه. "سّي اعْلي" الذي تحول إلى "الحاج اسْعيد" وتعددت مغامراته في النصب والاحتيال

والتزوير فاستدرجته أقداره.. وجمع ثروته كلها لينتهي منتحرا، وينتهي معه تهديده لخالد، ويصبح ما جمعه كله بين يدي طارق ابن الحاج احمد بنسلام.. طارق الذي استغرب الحكاية ومعها استغرب صبر خالد وحجم الهموم التي يحملها، وأدرك المهمة الخاصة التي قادته إلى أكادير ليكون فعلا جزء من تصميم التهيئة في حياة صاحبه المهندس. وليعلم أن للأقدار هندسة خاصة تمكر على طريقتها بمن يعتقد أنه الأذكى والأقوى.

-3-

## توازنات

انتهت العطلة، وعاد خالد إلى عمله بعد خلوة غسلت همومه وانتشلته من عذاب الضمير في قضية مسقط الطائرات، كما انتشلته من مستنقع زيكا والعياشي، وأحقاد دودو والقربالي.. واستبشر ببداية موسم جديد أصبح فيه صديقه سليمان مديرا للمؤسسة بعد فراغ المنصب ورحيل زيكا الذي بقي على اتصال بمجموعاته يوجهها ويقود صراعها مع المدير الجديد، بينما ساند خالد صديقه ضدا في زيكا وأتباعه. فكانت بداية الصراع مع توزيع جداول الحصص التي لم يحابي فيها المدير أحدا ولم يقبل طلبا للتعديل فأنهى زمن التسيب حين كان يعدل توقيت العمل حسب مزاج الأستاذ وقربه من الإدارة. فكانت تجمع الحصص في يومين أو ثلاثة أيام ويبقى نصف الأسبوع عطلة رسمية دائمة، وربما ذهب الأسبوع كله عطلة في بعض الأحيان، وهو ما عمل المدير الجديد على محاربته منذ أن كان ناظرا.

زالت الامتيازات وانتهت العلاقات وأصبح القانون هو الحكم.. فلا غياب بدون مبرر، ولا تنازل لأحد.. نظام أقرب إلى النظام العسكري. مما دفع الأساتذة إلى التكتل لمواجهة صرامة القانون وسطوة المدير.. فيما حافظ خالد على الحياد، لأن هؤلاء الذين حركتهم مصالحهم الآن

لم يتحرك أحد منهم لنصرته في صراعه السابق حين كان زيكا يهدده أمامهم علنا بتجميد ترقياته ومحوه من سلم الوظيفة العمومية.. فظلوا سلبيين خوفا منه وحفاظا على امتيازاتهم ومصالحهم.. هذا الحياد لم يمنع خالدا من مساعدة سليمان في بعض الأعمال الإدارية، دون التدخل في الصراع القائم رغم محاولات المدير توظيفه في هذه المهمة التي لا تنسجم مع مبادئه، فبين موقفه لصديقه بوضوح تام قائلا:

- نعم نحن أصدقاء، ولكن لن اشتغل معك مخبرا أو جاسوسا على أحد مهما اختلف معي.. والنصيحة التي أقدمها لك هي أن تخفف من التعامل القانوني وان تغلب الجانب الإنساني..

وللتو قاطعه المدير بصرامته المعروفة:

- موقفك محترم أستاذ خالد.. وأنا لن أسمح لفوضى المصالح أن تسيطر على المؤسسة.. ولن يرحمني أحد إذا خالفت القانون لإرضاء فلان أو علان. ويجب أن تعرف جيدا أن الذين يوقعون العرائض ضدي نصفهم يتصل بي ويعتذر عن توقيعه الذي ثم لصقه بالعريضة الجديدة دون موافقته.. (وتابع).. تأكد أستاذ خالد أن جميع العرائض تصلني نسخها أو أخبارها بعد توقيعها مباشرة..

لم يستغرب خالد هذا السلوك المزدوج فقد جلس سابقا مع مجموعة من المتضررين من سلوك زيكا، بعد أن خصم من نقطتهم الإدارية نقطتين أو أكثر ليرغمهم على الرضوخ والتذلل لسلطته.. جلس معهم فهاجوا وثاروا وأعلنوا التمرد بألفاظ سوقية نابية وهددوا بصفع "الكلب الحقير" وقرروا الاحتجاج صحبة خالد، فاستغل فترة الاستراحة حين أقبل زيكا على الأساتذة فوقف في وجهه ليعلن الاحتجاج باسم المتضررين فأرعد زيكا وأزبد وتساءل عن هؤلاء المتضررين وأين هم؟؟ فالتفت خالد وراءه فلم يجد أحدا إلا الجدران والكراسي وعون الخدمة الذي يجمع كؤوس الشاي الفارغة ويتابع الحدث بتركيز واهتمام.. وعرف أن مشكلة التعليم تكمن في تنازل نسائه ورجاله عن كرامتهم مجانا.. وأن من ينحني اليوم يداس غدا وما لجرح بميت إيلام.

كان المدير سليمان يعرف جيدا العناصر المدعومة خارجيا والعناصر ذات الوجهين ويتعامل بصرامة مع الجميع، لا يُقرِّب أحدا ولا ينسج علاقات مضادة، ولا يؤمن بالمناورة أو اللف والدوران.. يسير وفق ما يقتضيه القانون وما تفصله المذكرات الوزارية والتوجيهات الرسمية. لا يتنازل ولا يلين.. فتتابعت العرائض والإدانات، ونشرت المقالات في الجرائد التابعة لأحزاب النقابات عن الأوضاع السيئة في المؤسسة

بدعم وتوجيه من عناصر داخلية وخارجية. فاستفسرت النيابة المدير ولم تجد مبررا قانونيا لإدانته أو إقالته. وتتابع الصراع والتشنج، وتحركت المجموعات لتنهي الصراع بشكل قانوني، وتحسم المعركة في المحاكم، ولينتهي المدير كذلك معتقلا ومطرودا. فتم رسم خطة شيطانية بإشراك أستاذة كانت متضررة من قانونيته ومناصرة للمحتجين ضده.

قبل دخول التلاميذ أقسامهم وقفت الأستاذة أمام المدير تستفسره عن شيء ما، وفجأة مالت عليه وصرخت وولولت مدعية أن المدير ضربها وتمايلت تريد السقوط أرضا، فدعمها التلاميذ، وجاءها أحد الأساتذة بكرسي لتستريح، ثم انطلق يرفع صوته في الساحة محتجا على المدير الذي اعتدى على الأستاذة ضربا، فاجتمع عليها التلاميذ والأساتذة.. فيما بقي المدير مندهشا من الحدث يستنكر الخطة المدروسة للإيقاع به، ويتبرأ من التهمة المنسوجة بإحكام.

تم تدبيج التقارير ومراسلة النيابة، وسحبت شهادة طبية تثبت عجز الأستاذة وتعرضها للضرب.. وقُدِّمت شكاية بالمدير إلى وكيل الملك مدعومة بشهود وشهادة طبية.. وانتقل الصراع من خلاف في تدبير الشأن التربوي إلى ملف من ملفات الجرائم.. فكبرت المشكلة وشاع

الخبر وأصبح المدير حديث المقاهي والمجالس، وانقسم الناس بين متهم للمدير بالتصلب والتحرش.. ومتشكك في صحة الواقعة ومتهما الأستاذة باختلاق الحدث للانتقام من المدير الذي رفض طلباتها المتكرر بتعديل استعمال الزمن ليوافق رغباتها الخاصة... ومتزيد يتحدث عن نقل الأستاذة إلى المستشفى بين الحياة والموت...

لم يكن خالد حاضرا لحظة الواقعة، فحاول فهم ما حدث بالضبط واتصل بالمدير الذي أقسم له أن الحدث مفبرك ومؤامرة ضده تستهدف وجوده.. كما أكد لخالد ذلك بعضُ من حضر الواقعة. ثم اتصل بالشاهد الرئيسي في القضية غير أنه رفض الحديث وقال له:

- اسمع أسّي خالد. أرجوك لا تتدخل في هذا الموضوع.. المدير شردني عن أبنائي رغم استعطافي له بأن يجمع لي الحصص فرفض. فدعني وإياه حتى نلقى الله معا.

ظل المدير سليمان متشبتا ببراءته، ومتهما خصومه باختلاق الحدث بعد فشلهم في التغلب عليه قانونيا.. ولم يغير شيئا من سلوكه أو يتساهل في قراراته وتابع جلسات المحكمة بشخصيته القوية وتسييره المنظم حتى قال له خالد ذات مرة:

- أنت الرجل الصواب في المكان الخطأ.

فعلق قائلا:

- لو انضبط الجميع، وأدى كل واحد عمله لما كانت هناك مشاكل، ولكن الجميع يحب الخطأ، ويعمل على تثبيته فيصبح الصواب مكروها وصاحبه منبوذا.. التعليم -والبلد كله- لا يحتاج إلا لقرار يدين ويجرم الخطأ ويحاسب عليه. فجميع الدول التي نهضت بدأت بهذا القرار.

مضت سنة كاملة على الحدث. وانتقل المدير يحمل معه حكما بشهرين موقوفة التنفيذ. مضى وفي نفسه جرح غائر نتيجة الصراعات والمكائد وعجز المنظومة التربوية عن حل مشاكلها بعيدا عن المحاكم والصحافة وتدخلات من هب ودب من عامة الناس.

-4-

# الانهيار

بقيت الإدارة فارغة بدون مدير ولا ناظر ولا حارس عام. ومع الدخول المدرسي الجديد لجأت النيابة إلى تكليف الأستاذ خالد تكليفا شفويا بالعمل الإداري لمعرفتها بما اكتسب من خبرته رفقة المدير السابق الذي كان يمدحه كثيرا أمام الموظفين أثناء زيارتهما للنيابة.

بدأ خالد عمله الجديد محاولا الابتعاد عن التشنجات والصراعات ومركزا على إعادة ترتيب العلاقات فبدأ من النقطة التي أفاضت الكأس وخلقت الصراع، فأعد جداول الحصص بما يتوافق ورغبات أكثر الأساتذة وسارت البداية موفقة غير أن القربالي ودودو اللذين اتخذا موقفا مزدوجا في الصراع السابق، عادا إلى عادتهما القديمة في الكيد والتآمر بعد أن كان المدير السابق حاجزا امامهما بصرامته وقانونيته وعلاقته الطيبة مع خالد. اتصلا بالنيابة لإخبارها بضرورة تدريس مادة الثقافة الفنية التي يمكن إسنادها إلى الأستاذ المتفرغ للعمل الإداري. لكن النيابة لم تعر الأمر اهتماما، واكتفى أحد موظفيها بتنبيه خالد إلى موقف زملائه، فأسرها في نفسه، وتذكر آخر محاولة لإقصائه حين تم تشكيل لجنة الأنشطة الثقافية بالمؤسسة فتقدمت تلميذة بقصة

كانت قد نالت بها حظوة في الإعدادي وتم طبعها وتوزيعها على التلاميذ بثمن رمزي يقدم هدية للتلميذة.. قرأ الأستاذ خالد القصة وسجل ملاحظاته التي تثبت انتحال النص وسرقته واستدعى التلميذة وناقشها سرا في مكتب الناظر، مبينا أن العمل مسروق فخرجت باكية خائفة من الفضيحة لكن خالدا بحكمته طوى الموضوع وتناساه. وأثناء اجتماع لجنة الأنشطة تدخل القربالي ليطالب بانسحاب الأعضاء الذين لا يشتغلون بجدية:

- .. فالتلميذة المبدعة والمتفوقة قدمت قصة رائعة للجنة ولكن الأستاذ خالد أهملها وقتل فيها روح الإبداع والتفوق.. ضحك خالد وسأل الأستاذ:

- هل قرأت القصة؟

- نعم. نعم. وقد نالت جائزة التفوق في الإعدادي وتم طبعها داخل المؤسسة...

وكانت الصدمة حين أوضح خالد أن القصة مسروقة وأسلوبها يتجاوز قدرات تلميذة الإعدادي.. وفي القصة وقائع لا يعرفها إلا من عاشها وهي لكاتبة فلسطينية بينما القصة الثانية لكاتبة سورية مسيحية تتحدث عن مناسبات وعقائد وعلاقات خاصة جدا.. وحذر خالد من السقوط

في وهم التفوق قبل القراءة الفاحصة لتجنيب المؤسسة السخرية والانتقادات والمتابعات القضائية.

ورغم تحكم الأستاذ خالد في عمله تنظيما وتسييرا إلا أنه لاحظ أن العمل الإداري لا يتوافق مع اهتماماته الثقافية والعلمية، خاصة وأن التوجه العام للوزارة بدأ يسير نحو تمييع العمل التربوي بإصدار مذكرات وتوجيهات تحرص على تدليل التلميذ، فألغت العقوبات التأديبية، وحدت من سلطة الإدارة، وفتحت المجال أمام المفصولين للعودة إلى الأقسام، ورفعت نسبة عتبة النجاح.. فأصبحت المؤسسة مجردة من كل أدواتها وسلطتها للتحكم في العملية التعليمية.. وتغول التلاميذ وبدأت أولى مظاهر الانفلات التي أصبحت بعد ذلك ظاهرة عامة في المؤسسات التعليمية.

ومع تغول التلاميذ استفحلت ظاهرة الغش الذي أصبح حقا مشروعا تكفله الممارسة، ويدعمه سكوت الإدارة، وتساهم فيه الأسر بقوة.. فكان أول صدام للأستاذ خالد -في عمله الإداري- مع رئيس جمعية الآباء حين وقف في وجهه ومنعه من التجول في الأقسام أثناء الامتحانات، وهو ما لم يتقبله بصفته "رئيسا" فانسحب مهددا بتوقيف المؤسسة إن لم يرد له الاعتبار، لأن الرئاسة كما يفهمها -وهو

عون الخدمة في داخلية الإعدادية- تخول له التحكم في الأساتذة والتلاميذ وتسيير المؤسسة.. فمنصبه يشبه منصب المدير.

ما أصعب أن يمتلك عون الخدمة المقهور منصبا بهذه الصفة المتخيلة.. فقد أصبح يتفنن في شكل لباسه الرسمي، وفي عقد ربطة عنقه وتلميع حذائه، ونسي مهمته الأصلية فصار يصول ويجول، ويتخذ القرارات ويصنف الأساتذة، ويهدد أحيانا بالتدخل العنيف إذا مر اجتماع أو قضي أمر دون استشارته. وحتى لا يفوته شيء داخل المؤسسة كان يحضر يوميا فيراقب التلاميذ وهم يلتحقون بأقسامهم، ويجد لذة في نظراتهم إليه وهو واقف بجانب الأساتذة والإداريين محاطا باهتمامهم وحديثهم.. وهم ينادونه باسم "الرئيس" لأن هذه الكلمة السحرية عنده تتجاوز شواهد الموظفين ومراتبهم، وترفع قيمته من عون إلى شريك في إدارة المؤسسة.. حتى ولو كانت هذه المهمة بدون مقابل مادي، فالمال لا يهم إذا كنت من أصحاب القرار. لذلك لجأ إلى تغيير اسم وظيفته من "عون" مكلف بخزن المواد الغذائية لداخلية مؤسسة تعليمية، إلى "مسؤول التموين" بالداخلية ليصبح موازيا لمنصب المقتصد.

كانت هذه التصرفات والمتاهات سببا في رفض خالد التعيين المباشر في منصب مدير بإحدى المؤسسات المجاورة للنيابة، وعاد إلى قسمه يمزج بين العمل الإداري والعمل التربوي، يساعد الحارس العام الجديد الذي تم تكليفه رسميا بالإدارة، فكان سهلا طيبا مع الجميع.. فسادت الفوضى في المؤسسة وانتشرت مظاهر الغش في الامتحانات، وحاول الأستاذ خالد جهده إيقاف الانهيار إلا أنه صدم بمواقف امتزج فيها الحقد والكراهية بالانتقام.. فمرت به أحداث كان أشدها مؤامرة كادت تنتهي به إلى السجن..

فبينما هو أمام باب قسمه إذ أقبلت تلميذة تسير في الممر كاشفة عن نصف صدرها وظهرها، بلباس فاضح فأوقفها، وطلب منها الرجوع لارتداء بذلتها المدرسية، فرجعت باكية لتلتقي برئيس جمعية الآباء الذي لم ينس وقوف خالد في وجهه ومنعه من دخول الأقسام.. فاستغل الفرصة للانتقام وانتظر خروج خالد من القسم ليعترضه أمام باب الإدارة بالسباب والشتائم حاملا عصا فأس وهو يهدد بالضرب والقتل.. ووصل الخبر إلى القربالي ودودو فوجدا فرصتهما للانتقام القاتل، فاجتمعا برئيس الجمعية ودبّجا تقريرا باسم التلميذة تتهم فيه الأستاذ خالد بالتحرش الجنسي مع وجود الشهود.. كبر

المشكل وأصبح خالد مهددا في وجوده بتهمة قد تمحوه من سلم الوظيفة العمومية نهائيا.

في الصباح سلم خالد تقريرا بالحادثة إلى المدير موجها إلى النائب الإقليمي لوزارة التربية الوطنية عن "السلوك الهمجي" لرئيس جمعية الآباء وسط المؤسسة إلا أن المدير الجديد أطلعه على التقرير المضاد بالتحرش الجنسي مصحوبا بشكاية، سلمه نيابة عن التلميذة رئيس الجمعية، فلاحظ خالد أن الخط الذي كتب به التقرير والشكاية ليس غريبا عنه.. وطالب المدير بالتدخل لحسم الموقف فوعده بالمحاولة. وما أن خرج من مكتب المدير حتى سمع من المكتب المجاور ضحكات وقهقهات دودو والقربالي ورئيس الجمعية في انتشاء واضح بالانتصار.. وكان من الواجب، على الأقل، إظهار مساندة زميلهم في العمل، وإلغاء أي لقاء مع من اعتدى على حرمة المؤسسة وأهان رجل التعليم أمام الإدارة والتلاميذ. وحتى الأساتذة اكتفوا فقط بالتدخل لتهدئة رئيس الجمعية دون إدانة أو موقف مساند وغاضب. وقد فسر أحدهم هذا السلوك المحايد بصعوبة التعامل مع المنطقة وأهلها المعروفين بعنادهم وتكتلهم ضد الغريب.

كل شيء مهيأ الآن لسيناريو شبيه بما حدث مع المدير سليمان؛ نفس الخطة، ونفس الترتيب، لكنه هذه المرة أكثر إيلاما فالتحرش بفتاة قاصر حتى وإن كانت ليس فيها شيء جميل يدفع إلى التحرش -كما يتحدث عنها كل من شاهدها- هي تهمة ثقيلة وخطيرة ليس قانونيا فقط ولكنها ستعصف بجميع قيم الأستاذ ومبادئه التي عاش بها ولها.. قد تهون التهمة، ولكن الصورة التي رسمها الأستاذ في علاقاته بتلاميذه وتلميذاته انهارت فجأة وشاع الخبر بينهم.. وهو مالم يتقبله الكثير منهم لمعرفتهم بأخلاق الأستاذ ومبادئه.

وكانت المفاجأة. فقد اتصلت به تلميذة من الداخلية، وأخبرته أن رئيس الجمعية -الذي يعمل عونا في الداخلية- يتعمد كل ليلة الدخول فجأة إلى مرافق التلميذات ويتحرش بهن، وقد كتبن شكاية موقعة في الموضوع إلى المدير وسلمته نسخة منها.. فشكرها خالد كثيرا على الموقف الرائع الذي لم يجده عند زملائه في المهنة.. وشاع خبر شكاية التلميذات والنسخة التي سيوجهها خالد مصحوبة بتقرير إلى النائب الإقليمي لوزارة التربية الوطنية مع احتمال وضع شكاية في المحكمة لدى وكيل الملك، فجاءت التدخلات من كل جهة للمصالحة وإقبار الموضوع.. واستغرب خالد كيف تحرك من كان ساكنا غير مبال، ومن كان متحمسا لسقوطه.. تحركوا كلهم في اتجاه المصالحة، ومنهم من

ذهب أبعد من ذلك فاتصل بالتلميذات مهددا ومرغّبا.. لكنهن أظهرن صلابة لكراهيتهن تطاول عون الخدمة عليهن وعلى أستاذهن خالد الذي لا يمكن تقبل التهمة الموجهة إليه حتى باعتراف التلميذة نفسها صاحبة الشكاية المزعومة كما تناقلت ذلك صديقاتها..

طُوي الموضوع وتنفس خالد الصعداء، وأحس أن عناية الله معه في كل خطوة ترقبه وترعاه فسجد لله شكرا، واستغرق في دعائه باكيا خاشعا يسأل ربه أن يخرجه من هذه البلدة المغلقة أرضا وعقلا وأخلاقا، إلى بلد يطيب فيه المقام وترتاح فيه النفس، فقد انهار كل شيء، ولم يعد يقوى على المواجهة ولا النظر إلى الوجوه البئيسة؛ فوضى شاملة في المؤسسة وخذلان من زملاء العمل، ومؤامرات تحاك في واضحة النهار، وعيون في كل مكان ترقب الأحداث وتترصدها لتجعلها مادة لملء الفراغ والتلذذ بآلام الضحايا.

** ** **

# وضاع في المرافئ الزمنُ..

ظلت أحداث هذه المرحلة حاضرة في ذهن خالد حتى بعد أن غادر المنطقة إلى أرض أرحب وأوسع وأطيب.. مرحلة ضاع فيها الزمن وتاه معه المركب والملاح، وسافرت البحار.. ولم يبق سوى شراع تتقاذفه الأمواج في أسوأ المرافئ.. لم يبق سوى قلب يخفق بآلام تتقد في مرفأ الأحزان.. فود خالد لو محا هذه السنين من عمره وذاكرته.. مرحلة فقد فيها اتزانه ورزانته وضاع منطقه وتحليلاته، وبقيت معه عناية الله عز وجل تحرسه في كل لحظة، تنتشله وتنقذه حين يلتف الحبل.. ويظن أنها القاصمة.

ظل يستذكر الأحداث مع صديقه سليمان كلما جمعهما لقاء في مقهى، أو تواصلا عبر الهاتف. فقد كانت مرحلة قاتمة تركت ندوبا قوية في النفس، وحسرات لا تكاد تنسى مرارتها، حتى استحق الخروجُ منها التهنئة من سليمان:

- حمدا لله على سلامتك يا خالد. فقد خرجت من جهنم، كما يصفها القربالي نفسه.

ضحك خالد من هذا الاستدعاء الساخر، وعلق باقتضاب:

- اكتوى بالنار التي أوقدها..

ثم تابع سليمان يستخلص العبرة من أحداث المرحلة:

- يعيش الإنسان في هذه الحياة لحظات من القوة الزائفة، فينسج حوله سياجا من الوهم سرعان ما يهوي به فيقع في شر صنيعه.. وما كان يقلقني كثيرا هو إشراك التلاميذ في الكيد والمؤامرة والتجسس..

واستعاد خالد منطقه وعقلانيته، فسجل ملاحظاته حول دورة التنميط:

- هي دورة إنتاج تتكرر، فالتلاميذ يتلقون وعيا زائفا يعاد إنتاجه بخلفيات اجتماعية وتربوية فاسدة تطغى فيها الانحرافات، وتضيع معها القيم والمبادئ، وتصبح الثقافة والمعرفة مجرد مادة للامتحان، وسبيلا للتوظيف والترقي.. لا أثر لها في سلوك الطالب والأستاذ. ولا فرق بين تفكير المربي والإداري والعون، والمتعلم والأمي..

** ** **

دورة إنتاج واحدة تتكرر بأشكال مختلفة لتنتج الشؤم والحقد والكراهية.. في المدرسة، في الجامعة، في الشارع.. دورة يعيش فيها المثقف غريبا منبوذا مقهورا يصارع في كل اتجاه، ويحتار في تفسير هذه

الظاهرة التي تنبع أساسا من الانفصام بين التعليم والحياة، بين المعرفة والسلوك. انفصام مُرّ وحقيقة مغيبة يعرفها الجميع ولا يريد أن يتحدث عنها أحد.

ذلك ما أدركه خالد في منتصف المشوار، فتعلم الدرس وفهمه جيدا.

# فهرس

**نقطة نظام.....8**

**التكوين.....15**

الجو الطلابي.....17

الهموم الخاصة.....38

العلاقات.....46

الاختطاف.....58

وبدأ المشوار.....72

**المسار.....85**

سوس العالمة.....87

**المشوار**.....94

عود على بدء.....130

**المؤامرة.....135**

وكان ما كان.....137

وسقط المُسقِط.....154

توازنات.....165

الانهيار.....171

**وضاع في المرافئ الزمنُ.....179**

# مرافئ الزمن

يوظف هذا العمل الفني تقنيات روائية متعددة فيمزج بين المتخيل السردي والنماذج المعاشة التي اختارها السارد من فئات اجتماعية متنوعة، (نساء/رجال، طلبة/أساتذة ، أميون/مثقفون..) ليطرح أزمة القيم في المنظومة التعليمية العربية التي لم تغير شيئا في واقع المتعلمين ولم تستطع بناء شخصية المثقف المتميز في السلوك والتفكير، بل كلما اقتربت من هذه الفئة اكتشفت حدة الصراعات والحرص على الإقصاء وتدمير الآخر.

ويبقى السؤال عن الأزمة وجذورها مفتوحا للتصالح بين المعرفة والتربية، وإدماج المنظومة التعليمية في الحياة الاجتماعية والعملية.

المؤلف

.. وتبني هذه الرواية وعيها على أنقاض رفات وعي مجتمع لم يتمكن من تأهيل معظم فئاته التي ينخرها التعصب للإيديولوجيات، والركون لوعي الجماعة الزائف على حساب العقل والمنطق. ولم يكن خالد (بطل الرواية) سوى نموذج لمعاناة الرجل الحر الذي ينشد التغيير والانقلاب على مختلف مظاهر التخلف التي تلف المجتمع وتسري في أوصال مختلف فئاته، وترمي به في أتون خلافات أنتجها التعصب، فضاع على إثرها الحق وتبلدت الأحاسيس.

إن سرد مرافئ الزمن يشدك إليه ويخضعك لمتابعته، فتشعر أن نهاية الرواية ليست سوى استهلال لعوالم سردية متناسلة في فكر المؤلف، وفلسفته في الحياة.

د. حميد حماموشي (ناقد أدبي)

9 789920 407625

مطبعة وراقة بلال
IMPRIMERIE PAPETERIE BILAL
Tél/Fax: 05 35 61 86 03
FES - www.imp-bilal.com